# طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من العروة الوثقى في لندن

* * *



لعل الفيلسوف الالماني هيكل (١٧٧٠ — ١٨١٣) واتباعه من الجناح اليساري هم الذين فتحوا بابا جديدا في الفلسفة وأحدثوا عهدا جديدا فيها، وذلك بفضل ما كتبوا وارتأوا من نظريات حول معنى الحرية للانسان وحول الاوضاع الاجتماعية والسياسية التي يجد الانسان نفسه محاطا بها والتي تحد من هذه الحرية . واهمية هذه النظريات تنحصر في ان الانسان في هذا العصر الحديث الصناعي الميكانيكي قد اصبح شيئا من الاشياء ، ولم يعد انسانا يتمتع بنفسيته وبشخصيته . فهو قد فقد حريته وحرية العمل من تلقاء نفسه واصبح عبدا مملوكا لظروفه التي نشأت عن التطور الصناعي . وسيظل الانسان على هذه الحال من العبودية ما لم يتوصل الى استرجاع كينونيته الطبيعية وشخصيته الاصلية . ويعبر هؤلاء الفلاسفة عن هذه الحال بكلمة ( انسلاخ ) ، ويعنون بها ان الانسان اصبح في هذا الخضم الصناعي المعقد منسلخا عن شخصيته ، متجافيا عنها ، واصبح بمثابة شيء من الاشياء او اداة من الادوات يخضع لظروفه بدلا من أن يخضع هو ظروفه ويتحكم بها ، فلا بد اذن من العمل على تغيير هذا الحال بضده ، اي باحياء شعور الانسان بشخصيته وذاتيته حتى يتحلل من هذه القيود ، ولا يكون ذلك الا بدراسة الاحوال الاجتماعية درسا ناقدا يكشف عن اسباب الانسلاخ ، واسباب فقدان الانسان لحريته ، اي باستعمال الفلسفة والنقد الفلسفي للوصول الى الاوضاع والظروف التي تمكن الانسان من نيل حريته.

يقول هيكل ان الحرية ظرف يكون فيه الانسان مالكا لارادته مندمجا مع ماهيته ممسكا بزمام نفسه . ولاتمام الحرية يجب ان لا يشعر الانسان بوجود شيء غير نفسه . ولكن هيكل يقول ان الانسان منفصل عن ماهيته ومقيد بظرفين يكادان يكونان لازمين للمعيشة في هذا العالم : الظرف الاول الضرورة والظرف الثاني الانسلاخ . اما الضرورة فهي اخلاد الانسان الى مقتضيات الحياة في هذه الدنيا وخضوعه الى تقييدات الطبيعة من حيث اسباب العيش وقيوده من جهة واحدة ومن حيث القوى الطبيعية المادية الموجودة في هذا العالم من جهة اخرى . اما الانسلاخ فهو في معناه الاصلي عبارة عن انفصام النفس الى شيء عامل والى شيء مادي ، اي الى ( فاعل ) يجاهد للتحكم بمصيره والى ( منفعل ) يتحكم به غيره . فهذه القيود معناها العبودية في راي هيكل ، والشعور بوجود شيء غير الانسان هو القيود بعينها ، لان الحرية هي انسراح الانسان في المجال الطلق حيث لا يشعر بوجود شيء فوقه او تحته ، وانما يشعر بالانفراد بنفسه لا غير . وقد يستطيع الانسان بفضل العلم الحديث التغلب على الطبيعة والانفكاك من تقييداتها والخلاص من الضرورة ، ولكن كيف يتسنى له الخلاص من الانسلاخ اي من الوضع التناقضي بين ( الفاعل ) و ( المنفعل ) ؟ فالشخص في نفسه ليس مقتصرا على القوة الفاعلة التي تحاول تحوير العالم بحسب مشيئتها، بل هو ايضا القوة المنفعلة التي تتأثر باعمال الغير وبآرائهم عنه . وهذه الثنائية من ( الفاعل ) و ( المنفعل ) تكاد تكون حلقة مفرغة لا يمكن الافلات منها ما لم يتمكن الانسان بقوته الفاعلة من ان يحور العالم او ظروف العيش كما يشاء . فكيف يستطيع الانسان اذن ان يصل الى حالة يكون فيها مالكا لارادته ؟

هذا هو السؤال الذي اعيا حله الفلاسفة بعد هيكل ، ومنهم باور وفورباخ وماركس وغيرهم . يرى ( باور ) أن الحل ممكن اذا كانت الفلسفة فلسفة فاحصة ناقدة تكشف لنا عن سر العلاقات البشرية اي عن الدوافع المحركة للاعمال الاجتماعية ، ويقول ان معظم الناس الذين يخلقون في هذا العالم يقبلون بالامر الواقع ولا يفحصون عن المبادىء الاخلاقية والمعتقدات ما اصلها وما السر في وجودها ، فهم مقدرون بهذا العلم مسيرون به ، وليس لهم اختيار . فلو انهم فحصوا جميع المبادىء والمعتقدات فحصا دقيقا ناقدا لفتح لهم ذلك باب الخلاص من التبعية والاقتداء ولاصبحوا شاعرين بنفسيتهم وشخصيتهم الذاتية ولعاد لهم تفكيرهم الحر ورشدهم ، وعاد معهما تملكهم لانفسهم . فالتغلب على هذه الثنائية يكون عن طريق تقوية القوة الفاعلة في الشخص اي عن طريق الشعور بالذات وتقويته . ويرى ( فورباخ ) ان الذي يبعد الانسان عن نفسه ويسلخه عنها هو اخباته وخضوعه في العبادات على اختلاف انواعها ، من عبادة جمادات او اشخاص ، لانه بذلك يتنازل عن شخصيته ويذيبها في الشيء او الشخص المعبود . فلكي يعيد الانسان الى نفسه شخصيته يجب عليه ان لا يعلق الاحترام بشيء خارج عنه ، بل عليه ان يهتم بدلا من ذلك بشخصه وبالانسانية بصورة عامة وان يجعلهما معبودين له ، وان تكون علاقة الانسان باخيه على اساس علاقة ثنائية ذات طرفين وهما ( انا ) و ( انت ) . ويرى ايضا ان توجه الفلسفة الى دراسة معيشة الانسان وان يحرر الانسان من التخيلات الفلسفية ومن قيود عالم الغيب ، بحيث يصبح ما هو غير محدود محدودا .

ومن الغريب ان مارتن بوبر الرجل الديني قد اتخذ من راي ( فورباخ ) في علاقة ( انا — انت ) اساسا لفكرة دينية ضمنها كتابا من كتبه سماه ( انا وانت ) ، وكان لهذا الكتاب تأثير كبير في المجالين الديني والفلسفي . واساس هذه

الفكرة الدينية الثنائية ان الشخص في هذا العالم له موقفان : (١) موقف نحو امثاله من الاشخاص و(٢) موقف نحو الاشياء . فالشخص الذي هو ( انا ) في علاقته مع الشخص الآخر الذي هو ( انت ) يكون في حالة تعارف معه فقط ولا يستطيع ان يشعر بشعوره ويتلبس شخصيته، ولكنه في اتصاله بالاشياء يستطيع معرفتها والشعور بها والتصرف بها ، وهذا ما يجري في ميداني العلم والاقتصاد مثلا . وقد يحدث احيانا ان الشخص الآخر الذي هو ( انت ) يكون في صدام ومجابهة مع الشخص الذي هو ( انا ) فيصبح بمقام الشيء . ولكن ( الانت ) الوحيد الذي لا يمكن ان يصبح شيئا هو (الانت)الازلي الابدي وهو الله.

وثمة ثنائية اخرى وهي ثنائية الفيلسوف ( بردايف ) الروسي الاصل . فان بردايف يرى ان الشخص قسمان : (١) روح و (٢) طبيعة . فالروح هي اساس شخصية الانسان وهي التي يجب ان تتمتع بكل حرية ، ولكنها تكون دائما في صراع مع الطبيعة ، وهذه تضيق عليها الخناق وتحد من نشاطها في المجتمع . وبما ان الانسان مشترك بين الروح والطبيعة ، فهو مشترك بين دافعين : دافع نحو الحرية ودافع نحو العبودية . والانسان من حيث الدافع الروحي يعتبر شخصا ومن حيث الدافع العبودي يعتبر فردا ، وهذا التفريق بين ( الشخص ) و ( الفرد ) يعود الى ( جاك ماريتان ) الذي اخذه عن ( توما الاكويني ) . غير ان ( بردايف ) مدين في كثير من افكاره من ناحية الشخصية للفيلسوف الوجودي (كير كيغور) الدانيماركي الذي عارض ( هيكل ) الالماني معارضة شديدة ، لان ( هيكل ) قيد حرية الشخص وجعلها خاضعة للقوة المسيرة لهذا العالم وانزل الانسان منزلة الجزء البسيط في آلة معقدة ، ليس له كبير اختيار ولا مجال للحرية المطلقة. وقد وصف كير كيغور نظرية هيكل بانها هادمة للحرية ، تجعل الانسان كأنه سن من اسنان دولاب كبير يدور بدوران ذلك الدولاب ، ليس له شخصية حرة ولا استقلال في اعماله وسلوكه ، وانما هو تابع لقوة خارجة عن نفسه . وعلى هذا الاساس انتقد ( كير كيغور ) نظرية هيكل في الدولة ، حيث جعل الفرد عبدا لها ورفع مقامها الى مقام التقديس والمثالية ، كما هو معروف عنه وعن رفاقه من المثاليين الالمان .

ولكن الثنائية التي هي الاساس هي الثنائية الموجودة في المجتمع البشري بين الفرد والمجموع . فالفرد له كيانه الخاص به وله رغباته وحاجاته ، فهو اذا كان حرا مطلقا يسعى الى تحقيق هذه الرغبات ويعطي لنفسه حاجاتها . ولكنه في المجتمع مقيد في الوقت نفسه برغبات الغير وحاجاتهم ، فلا يتسنى له ان يطلق العنان لشخصيته ويستقل بمسلكه كما يشاء . ومن هنا كان الصدام بين الفرد والمجموع ، ومن هنا نشأت الفلسفات العديدة التي انقسمت بين فلسفات تدعو الى حماية الفرد من المجتمع وفلسفات اخرى تدعو الى اخضاع الفرد للمجتمع ، واختلفت فيما بينها حول موضع الفرد : هل هو خادم للمجموع ام المجموع خادم له . ولكن الذي لم يدر عليه خلاف هو ان هذا الصدام الحاصل بين الطرفين يخلق في الفرد نقمة نفسانية على المجتمع تأخذ شكل النظريات الاجتماعية مثل نظريات ( هوبلس ) الانكليزي و ( روسو ) الفرنسي و ( هيكل ) الالماني مثلا ، وتأخذ شكل النظريات الفوضوية او تأخذ شكل الكبت النفساني كما جاء في فلسفة ( فرويد ) . ثم ان الفرد في تأثره بالمجموع ينفعل بانفعالات مختلفة بحسب حاجاته انكانت جسمانية او روحية او فكرية ، فالبوهيميون يريدون حياة الانطلاق اشباعا لرغباتهم الحسية وملذاتهم البدنية ، والروحيون يريدون حبس النفس عن هذه الرغبات والملذات ، والمفكرون والفهماء يريدون خلق مجتمع جديد يتطابق مع آرائهم وفلسفاتهم . والفرد في جميع ذلك يشعر طول الوقت بالتوتر في نفسه بين شخصيته والكيان المجموعي . فهو من جهة يريد ان يبقي علىاستقلاله مالكا لزمام ارادته ، ويرى من جهة اخرى انه مضطر الى مسايرة المجموع والتنازل عن شيء من استقلاله وارادته . فاذا كان المجتمع بسيطا بدائيا كانت مسايرته له قليلةوبقي له شيء كثير من استقلاله ، ولكنه اذا كان معقدا راقيا كانت مسايرته له كبيرة ، وفقد بذلك الشيء الكثير من استقلاله ، حتى أنه ، كما في المجتمع المدني الحاضر ، يصبح تحت رحمة الظروف خاضعا لها ، ولا يبقى له من التمتع بشخصيته الا القليل ، وتنشأ بينه وبين مجتمعه هوة يتجافى بها عن كيانه وينسلخ عن شخصيته ، وتصبح شخصيته عازبة عنه بعد ان توزعت على اشكال التعقيدات القائمة في مجتمعه . هذا هو اساس الانسلاخ والتجافي . فقد حارب الانسان السيطرة من جميع الانواع من دينية وغير دينية الى ان نال الفرد حريته ، ولكنه سرعان ما ادرك ان الحرية التي نالها بجهاده قد انقلبت في العالم الراقي الى ضدها واصبح الانسان بعد تحرره من جميع القيود كريشة في مهب الريح لا يريد الا ان يجد لنفسه مرسى ترسو فيه سفينته الهائمة . ولهذا انتشرت فكرة التمسك بالدين او العودة الى تقوية الروابط القديمة كالاسرة والشعب والامة على اختلاف عصبياتها . وقد وجد العالم الاجتماعي الفرنسي (اميل دوركيم) ان شدة انسلاخ الفرد عن المجتمع وروابطه كانت السبب في ازدياد حالات الجنون والانتحار ، ووجد ان حوادث الانتحار تتناسب مع مقدار التفكك الاجتماعي ، فكانت اعلى نسبة من هذه الحوادث بين البروتستانت وسكان المدن والعمال الصناعيين والغير المتزوجين او الغير المتزوجات او بصورة عمومية بين الاشخاص الذين ضعفت في معيشتهم قوة الروابط الاجتماعية . وهذا كله بسبب الانسلاخ او التجافي ، اي بسبب انحلال الجماعات وتلاشي القيم الاجتماعية المأثورة . وقد الف ( اريك فروم ) كتابه ( المجتمع الرشيد ) لبحث هذا الموضوع اجمالا ، وخصص لظاهرة الانسلاخ جزءا غير صغير منه ، وحذر فيه من الاخطار النفسانية التي تنطوي عليها الثقافة الغربية الحاضرة .

ومن الطريف ان نشير هنا الى ان افلاطون قد ادرك منذ

## الى دنياي وامسي

●

لا تسيئي
لصباباتي ، جراحاتي العميقة
لمواثيقي ، واحيائي العتيقة
لا تظلي ، مثل ما كنت ، صفيقة
ماء وجهي لن اريقه
فبصمتي ، وباعماقي ونفسي
غير ما في هذه الدنيا ، وكاسي
لي دنياي وامسي
لي حبي ، ودرابيني القديمة
لي ماضي واسواري الهديمة
وتعاويذ طفولاتي ولعبي
وارتجاعاتي ، حماقاتي وحبي

لي عداواتي ، صداقاتي الوثيقة
ومماشي ، زهوري في الحديقة
وصديقاتي العصافير الرشيقة
وارتعاشات الوريقات الرقيقة
وفراشاتي الانيقة
كان لي ثمة حلم ، وحقيقة

لي ذكرى حلم ـ اذكر مرا
كان وهما
لست ادري ما اذا ارجع يوما
مر ، مرا
ترك المهجة حيرى
ظمئت للماء ، الا ان ذاك الماء
كان مرا
كان خمرا
كان لي وصفة داء
كان لي ملعقة
وطبيبا ودواء
كان لي مجرى هواء
في اختناقي وانهياري
واحتمالات شفاء
من دواري

لي ما لا تفهمينه
انت يا ايتها الروح الضنينة .

بغداد صفاء الحيدري

القديم ان التحلل من سلطة المجتمع او سلطة الدولة والتفرق في جماعات او منظمات مختلفة امر يؤدي في النهاية الى التفكك حتى في الاخلاق والى تعدد الولاء . ورأى في وحدة المجتمع وفي سيطرة الدولة الضمان الوحيد للنظام وللحرية الحقيقية ، حتى انه في كتاب ( القوانين ) حرم على الفرد في الدولة ان يكون له معبد خاص للالهة في بيته او ان يصلي منفردا عن الجماعة . وكان ( روسو ) الفرنسي يقول ان اكثر ما اثر في نفسه افلاطون من بين جميع المؤثرات. و ( روسو ) اول فيلسوف حديث ادرك ان الدولة هي السبيل الوحيد لحل جميع المصادمات بين المنظمات المختلفة ولازالة التوتر النفساني في الفرد نفسه . فالدولة في نظره ملجأ روحي للفرد يتخلص فيه من حالة الشك وعدم الاطمئنان في حياته ، كما كانت الكنيسة في العصور السابقة . فهو ، كأفلاطون ، يرى أن الدولة حتى في حكمها المطلق تهيء أحسن الظروف للتوفيق بين النظام والحرية وتريح الفرد من حيرته النفسانية . وهو يفرق بين المجتمع والدولة ، ويرى ان الدولة هي الشفاء والعلاج من اضرار المجتمع : فقد كتب الى ميرابو يقول : « من ماهية المجتمع ان يولد حربا لا تنقطع بين افراده ، والسبيل الوحيد لمكافحة ذلك هو ايجاد نوع من الحكومة تضع القانون فوق الجميع » .

ويكاد روسو ان يكون اول الفهماء والمفكرين الحديثين الذين ادركوا حالة الانسلاخ في المجتمع، كما ادركها (هيكل) و ( ماركس ) بصورة جلية فيما بعد . فقد تصور الفرد بانه غير مستقر في نفسه بسبب ضغط المجتمع عليه وبأنه منشق عن كيانه بسبب توجيه اهتمامه الى مكافحة المجتمع وفقدانه بذلك طمأنينته الداخلية . وعبر ( هيكل ) عن حالة الفرد هذه بعبارة ( الشعور بالشقاء ) او بعبارة ( النفس المنسلخة ) ، وقال ان الشعور بالشقاء هذا امر ضروري للفرد لكي يشعر بنفسه ، فيجب ان يشعر اولا بانه منعزل في بيئة منفصل عن مجتمعه ومظلوم منه حتى يشعر بشخصيته وبنفسيته ، وبهذا الشعور الذاتي يتمكن من الوصول الى الحرية . ويجب ان يكون الانسان غريبا في مجتمعه حتى يصبح بعد ذلك مستأنسا فيه ، ويجب ان يشعر بانه عديم القيمة قبل ان يصل الى مقام الاحترام والمكانة في مجتمعه فامثال هذا الفرد يؤلفون طبقة المنكودي الحظ في المجتمع الغاضبين عليه والناقمين على طبقة المحظوظين ارباب الثروة والمراكز . وبعض افراد هذه الطبقة يكفون عن الصراع وينصرفون عن الدنيا مستسلمين او انتظارا للسعادة في الحياة الاخرى ، والبعض الآخر ، وهم القلة ، يؤمنون بقوة العقل ويجاهدون في سبيل تغيير الاوضاع الى ما هو احسن في هذه الدنيا ، وهؤلاء القلة هم المفكرون والفهماء ، او هم الفهماء اذ لم يكتفوا بالعقل وحده بل جمعوا بين العقل والعمل لتغيير المجتمع .

لندن حسن الكرمي



محمد رجب البيومي

# انصاف بطل شهيد

بقلم محمد رجب البيومي

كان تداعي المعاني وحده صاحب الفضل في تحرير هذا البحث ، فقد كنت اقرأ الجزء الثاني من كتاب منوعات الذي اخرجه الدكتور العالم محمد كامل حسين ، ورايته في ص ٤٤ يتحدث عن الاستاذ احمد حافظ عوض حين شغل كرسيه عضوا في مجمع اللغة العربية بعد وفاته فيقول «اذا كان الاستاذ حافظ عوض قد شب في عصر لا يعد خير عصور الحياة الفكرية في مصر ، واذا كانت آثاره الادبية وهي وحدها التي تعنينا هنا ، لا تخلو مما يدل على كثير من صفات ذلك العهد ، فان ذلك لا يعد عيبا فيه ولا نقصا ، فحسب المرء ان تكون آثاره في ميدان الفكر صورة صادقة واضحة للعصر الذي يعيش فيه ، وان آثار سلفي لكذلك ، فهي صورة للعصر الذي شب فيه لا الذي انتهى اليه ، فيها تخبط الذين يلتمسون اسلوبا جديدا ، وتعثر الذين يتحسسون منهجا غير مألوف » .

قرات هذا الكلام فسبق ذهني فجأة الى كتاب فتح مصر الحديث الذي اصدره احمد حافظ عوض سنة ١٩٢٥ عن حملة نابليون على مصر ، واحتفلت به الدوائر الصحفية والادبية احتفالا يناسب مركز مؤلفه كرجل سياسة وصحافة وادب ! حتى قال فيه احمد شوقي قصيدة رنانة يوم كان شعراء مصر يظنون تقريظ الكتب احدى موضوعات الشعر ، فهو شبيه بزيارة الخديوي مدينة طنطا او افتتاح ملجأ الايتام مثلا !! هذا الكتاب قراته قديما ، ولمست فيه تحليلا شاملا لبعض الغوامض الخافية في تاريخنا القريب كما لمست فيه ايضا اندفاعا متطرفا في بعض الاحكام الجائرة ، ولا ادري لماذا تذكرت السيد محمد كريم محافظ الاسكندرية حينئذ بالذات ، فقد كان احد الابطال المخلصين الذين قسا عليهم المؤلف الكبير دون موجب ! فلا يكاد يمر حديثه حتى يشوبه الكاتب بسياطه ، حتى موقف استشهاده البطولي كان مثار هزء بالرجل وهو بعد جدير بالتقدير والاجلال ! وقد يدهشك ان تجد أحمد حافظ عوض يقول في اول حديث له عن السيد محمد كريم هذه السطور ص ٩٧ .

« الا انه لما انزلت الجنود الفرنسية في البر ليلا ، في تلك الليلة القمراء اسرع بدوي على فرسه بالسير الى الاسكندرية وابلغ الخبر السيد محمد كريم .. ومن يدري كيف كان واين كان في تلك الساعة مع سراريه واخدانه على نحو ما الف أهل ذلك الزمن من الترف والنعيم واللهو .. »

ولا ادري كيف حكم حافظ عوض على الرجل بهذا الترف الماجن العابث ، المتقلب بين الجواري والغلمان ! وهو بعد لم يكن واليا تركيا ، او احد امراء المماليك لعهده ممن اشتهروا بالترف الخليع ! ولكنه رجل شعبي ترقى بكدحه وعرقه حتى وصل الى ما لم يصل اليه مصري مضطهد مسكين !

ثم تحين مناسبة اخرى يقف فيها السيد محمد كريم موقفا بطوليا اذ يتصل بالقاهرة ليخبر اولى الامر بتحركات الفرنسيين ، ويدعو المماليك الى استرداد الاسكندرية ، وهذا عمل شهم من شجاع وطني يسوءه ان تتفرق الجهود فلا تجتمع على محاربة العدو الغازي الفاتح !

ولكن مؤلف الكتاب وحده يراه عملا دنيئا اذ لا يجوز لمحمد كريم ان يخرج على نابليون بعد ان تلطف به وابقاه حاكما على المدينة وانت تدهش كثيرا حين تجد احمد حافظ يقول ص ١١٤ .

« ولكن السيد محمد كريم هذا على الرغم من هذه المعاملة الحسنة وتلطف نابليون في مخاطبته وثقته به ، لم يحفظ للفرنسيين حرمة ولم يرع لهم عهدا وكان كعادة ابناء جنسه وزمنه وكعادة ابناء وطنه الى وقتنا هذا لا يثبتون على راي واحد ، اذ بينما هم مع هؤلاء اذ هم مع اولئك وعذرهم في هذا قصر نظرهم من جهة ، وخوفهم من التقلبات من جهة اخرى زيادة عما ربوا عليه من اثر الذلة والمسكنة وضعف الارادة ، فقد وجد الفرنسيون معه بعد ذلك مكاتبات بعث بها من وراء ظهورهم الى مراد يحرضه على الغارة على الاسكندرية » .

والى الله اشكو هذا المنطق !! فلو كان الرجل يهتم بنفسه لا بوطنه لفضل الوقوف بجانب نابليون بعد ان تلطف معه وابقاه محافظا كما كان !! ولكنه يأبى ان يكون ساعدا للبغي وظهيرا للعدو ، فيكون ذلك مدعاة لوم وتقريع من مؤلف الكتاب يصلان به الى اللعنة والسباب !!

ويسير المؤلف على منواله هذا فاذا تعرض لنهاية البطل وقد رزق الشهادة في حومة البطولة الشريفة ابى الا ان يهجنه ويزدريه فيختار اضعف الروايات الباطلة ويعلن انه اخذ في ساعاته الاخيرة يتوسل ويتزلف ويقول لمشايخ الازهر اشتروني يا مسلمين !!

ثم ينحى باللائمة على من اعجب بالبطل من الكتاب الانجليز فيقول ص ٢١٨ :

« ولصاحبنا المرحوم الحاج عبد الله براون الانجليزي المستشرق في كتابه ( بونابرت في مصر ) اعجابا بالسيد محمد كريم وقال عنه انه أبى دفع الفدية ومات شهيدامقداما وما ادرى على ما اعتمد في هذه الرواية ومصدره الوحيد في هذا الجبرتي وهو يقول انه تذلل وقال : اشتروني يا مسلمين !! »

واذا كان الاستاذ احمد حافظ عوض لا يدري علام اعتمد المستشرق الانجليزي في قوله ، فان مؤرخ مصر الكبير الاستاذ عبد الرحمن الرافعي يدري ذلك فقد حكم في هذا الموضوع حكما عادلا حين استعرض الروايتين المختلفتين في مقاله عن السيد محمد كريم بمجلة المجلة اكتوبر سنة ١٩٦٠ ! فقد ذكر ما رواه الجبرتي عن فزع كريم واضطرابه وما رواه « بوريين » سكرتير نابليون وريبو مؤلف التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية من ثبات الرجل وابائه وقال بصدد ذلك ص ١١ من المجلة « ولو كانت رواية الجبرتي صحيحة لما فات الفرنسيين ان يذكروها ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا باعدامه ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فان رواية روبين ترجح رواية الجبرتي ، لان الجبرتي لم يكن شاهد عيان لواقعة اعدام السيد « كريم » بل يغلب على الظن انه كان منزويا في بيته بالصنادقيه في ذلك اليوم العصيب ! اما المسيو بوريين فقد شهد الواقعة ويقول في مذكراته انه هو الذي اوعز الى المسيو فانتور ان ينصح السيد محمد كريم بدفع الغرامة فابى دفعها ، فرواية بوريين كما ترى هي رواية شاهد عيان وهي ادعى الى الثقة واقرب الى الواقع من رواية الجبرتي » .

ولعل القارىء بعد ما تقدم يحتاج الى ان نعرض لتاريخ هذا البطل ببعض التفصيل ليعلم عن انصاف وحيدة كيف مثل دوره الشجاع كاحسن ما يقوم به وطني باسل أمين !

* * *

ان مما يشرف السيد محمد كريم انه نشأ بالاسكندرية نشأة متواضعة فهو شعبي ينحدر من الطبقة المكافحة المناضلة وقد خاض غمار العيش مجاهدا فشق طريقه بين الاشواك والصخور ، وامتهن الحرف الصغيرة درجة وراء درجة حتى صار ( قبانيا ) حاسبا يجمع بين الارقام ويضبط الموازين ، وزادته صناعته فهما لروح الشعب ، وتقديرا لحالته الاجتماعية !! وكانت له آمال ومطامح فعمل على ان يصل اليها مستعينا بخبرته الطويلة !! وتجاربه العديدة في وطن مليء بالمفاجآت !!

لقد كانت مصر نهبا مقسما بين المماليك، يمتصون خيرها، ويعتصرون مجهودها ، ويعيشون بجنودهم واتباعهم فسادا بين اهليها ، فيقتحمون المتاجر في المدن ويصادرون الغلال والمحاصيل في القرى فلا يدعون فلاحا آمنا في سربه ، او غنيا متمتعا بخيره ، وكان مراد بك من اعظم هؤلاء سطوة وشكيمة ، فله من الحاشية والاتباع عدد هائل يرشحه للصدارة ويدفعه الى المجد كما يتصوره من اعنف طريق !! فخاف الناس شره ، وانضم اليه الكثيرون تخوفا وحيطة !! وراى السيد محمد كريم ان يعمل في دائرته الواسعة فاظهر نباهة واهتماما ولمع اسمه في محيطه لمعانا قويا . . فسلطت عليه الاضواء واختير حاكما للاسكندرية وقد تمكن في منصبه المرموق ان يحفظ ميزان العدالة جهد طاقته ، فاذا كان لا يمكنه ان يمنع عدوان الطغاة من المماليك فانه كافح مكافحة طيبة في سبيل توفير الرخاء ، واشاعة الطمأنينة والسلام ، واقامة العدالة بين الناس ، وبهذه الاعمال الحميدة رزق محبة خالصة من القلوب ، ورأى فيه الاسكندريون موئلا امينا يصد عنهم هجمات الطوارىء ويذود عن بلدته قدر الطاقة كوارث الطغيان !!

غير ان الاحوال السياسية لم تجر في عهده على السنن المعهودة ، فقد تعرضت مصر لغزو خارجي اقض المضاجع وارق الجنوب ، وكانت الاسكندرية خط الدفاع الاول عن البلاد ففي موانئها وقفت البوارج الحربية تحمل الكثير من الجنود ، والرهيب الفاتك من السلاح !! وتعرض الثغر الوادع الى اعنف عواصف الاستعمار فما تضعضع او استكان بل قاده السيد محمد كريم الى الحرية في صلابة وايمان !!

افاقت الاسكندرية من نومها ذات يوم فرات الاسطول الانجليزي قد طوق الاسكندرية ببوارجه وجنوده ، وسارع السيد محمد كريم الى لقاء القائد « نلسن » فأفهمه الضابط الانجليزي ان الفرنسيين سيحتلون البلاد عن قريب ، وانه موفد الى تعقبهم واستئصالهم ، وظنها السيد خدعة ماكرة، فرفض ان يصدق هذا الكلام وطالب القائد الانجليزي بالانسحاب ، ورفض ان يمده بالمؤونة والماء ، وتحير الانجليز فيما يصنعون !! لقد كانوا يرغبون في الاقامة بالاسكندرية حتى تمر البوارج الفرنسية الغازية فيتلاقى الفريقان في شقة البحر الابيض الواسعة !! وها هو ذا حاكم الاسكندرية ينذرهم بالعداء ويمنع عنهم الغذاء والماء مما يتعذر معه المقام !! ولئن اشتبك مع الاهالي في حرب فانه سيكسب معاداة قوم لم يأت لمحاربتهم ، وربما كانوا عونا للقوات الفرنسية القادمة فيما بعد . . هكذا فكر نلسن وقدر . . ومن ثم آثر التقهقر والانسحاب !!

رحل الاسطول الانجليزي . . . وكان الناس بين مصدق ومكذب لما زعمه من مجيء الفرنسيين ، الا ان السيد محمد كريم قد اخذ للامر عدته فدعا الاهالي الى حمل السلاح ، واتصل بمراد بك وبالعرب الذين يلتفون حول الثغر ، كما امر بتحصين المدينة ، واقامة المدافع وتهيئة الذخيرة والعتاد ، وكان ما توقع الانجليز ان يكون ، فقد وفدت الحملة الفرنسية الى الاسكندرية !! يقودها اكبر قائد عرفته اوروبا في القرن الثامن عشر ، ووقف السيد محمد كريم وجها لوجه امام القائد الفرنسي نابليون بونابرت !

ولو كان لمصر حظ مسعد في تلك الايام لتأخر قدوم الاسطول قليلا حتى يلحق بغريمه الفرنسي . فتدور المعركة

بين اجانب غرباء فوق سطح الماء دون ان يتعرض الناس لويلات مدمرة ، ولكن المصريين لم يكونوا يفرقون بين الانجليز والفرنسيين فكلهم افرنج اجانب يتحدون ضد الشرق والسلطان !! ولو كان السيد محمد كريم ذا خبرة بالسياسة الدولية في عصره لانتهز هذه الفرصة !! ولكن الجهل المطبق بامور اوروبا الدولية قد كبد مصر خسائر فادحة ! وعرضها لاعنف الزلازل والنكبات !

وقد كان رجال الحملة الفرنسية يعرفون كل شيء عن مصر ، يعرفون ان جيشها أجنبي دخيل لا يحس بالعاطفة الوطنية نحو بلاده، ويعلمون ان ادوات الحرب لديها محدودة ضئيلة وهي على ضعفها المتهافت لا تقف لحظات امام الاسلحة الحديثة وكان الم الفرنسيين بموقع الاسكندرية ومكانتها الحربية صادقا في حد ذاته ، فقد اقام الرحالة الفرنسي فولني بها مدة طويلة فعرف اماكن الضعف ورسم صورة خلابة للاستيلاء على البلاد من اقرب طريق ، بل اكد للفرنسيين كاذبا ان المصريين يرحبون بهم ، اذ ان الشعب في اضطراب يائس وقلق مرير من جراء تعسف سياسة المماليك وطغيان الولاة ، وتجاهل الدولة العثمانية ، فهو يتوق للحرية والخلاص مترقبا « منقذه » الجريء .

وقد صدق الرحالة في تصويره مقدرة الشعب الحربية!! ولكنه كذب في زعمه ان المصريين سيرحبون بالفرنسيين ويرونهم معجزة الخلاص والانقاذ ، اجل صدق الرحالة حين قال عن الاسكندرية « ليس بالمدينة سوى اربعة مدافع في حالة غير صالحة وليس بين الحامية من يمكنه اصابة المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين » ولكنه كذب في دعواه الجريئة عن الشعب فالمصريون — في جميع عهودهم التاريخية — لم يرحبوا باجنبي دخيل يدوس كرامة الوطن ويلوث نقاء ماء النيل !!

وقدم نابليون مخدوعا بما سمع !! وتوهم ان المصريين سيصطفون على الطريق يهتفون بحياته ويعلنون ولاءهم للجمهورية الفرنسية !! ولكن آماله قد انهارت حين وجد الثورة الشعبية تقف في وجهه ، فالاهالي يتحصنون بالاسوار ويدفعون طلقاتهم الصائبة الى البواخر وقد ثارت في نفوسهم عاطفة الكرامة والانتقام !! لذلك امر القائد الفرنسي بتطويق الاسكندرية ومحاصرتها من ثلاث جهات !!

وانك لتعجب بالبطولة الخارقة حين تسمع ان البطل الخالد ( السيد محمد كريم ) قد اصدر اوامره بمواجهة القوة الغاشمة واعتلاء الاسوار ، فسارع فوقف فوق قلعة قايتباي وتلقى طلقات المدافع المنطلقة بثبات وشكيمة ، وجاوبها بما يملك من ذخيرة ، وجنود ، ورجاله من ورائه يصنعون صنيعه ويقتدون به حماسة وتضحية ، وكانت موقعة حمراء بذل فيها المصريون جهودهم وذخائرهم وارواحهم ، ولكنها كانت محنة اليمة للفرنسيين فقد قوبلوا بهول عاصف وفزع شديد ! ويكفي ان تعلم ان نابليون وكليبر ومينو ، وثلاثتهم في طليعة قواد الحملة بأسا وعزيمة وحيلة قد اصيبوا جميعا بشتى الطلقات فاصبحوا يضمدون جروحهم البالغة ، ولم ينتصر نابليون على الوطنيين الا حين وجه قذائفه الى الاسوار المتداعية فتهاوت متساقطة واقتحم المدينة باسلحته وقذائفه ، فما تراجع الاهالي عن موقفهم في شيء !! ولكن القوة الغاشمة تجبر من يقاومها على التراجع !! وليس عيبا ان تتقهقر بعد ان تنفد ذخيرتك ولكن العيب ان تعلن الاستسلام والخنوع باديء ذي بدء فيلوكك المحتل لقمة سائغة !! وهذا ما تحاشاه الوطنيون فلم يعلن السيد محمد كريم استسلامه الا بعد ان فقدت الحامية كل عتاد ، واصبحت مواجهة الاعداء بدون سلاح ما حماقة رعناء ! وقد اعترف الفرنسيون ان الاهالي دافعوا عن الاسكندرية بحماسة عالية وثبات عظيم ، حتى افرغت ما تدخره من قوى متجمعة !! وخلدت بلائها الحميد موقفها في رحاب التاريخ !! وحين قبض نابليون على الموقف لم يشأ ان ينكل بالاحرار ! بل ترك الفرصة سانحة للمسالمة والهدوء وارسل منشوراته المتوالية يعلن اخلاصه للشعب المصري واعتناقه الاسلام ويبين انه جاء لمحاربة المماليك الذين استبدوا بالشعب ! ومنعوا الفلاح عن كل خير ، واتخذوه حيوانا يحرث ويزرع ويحصد ، ولهم ما ينتج من ثمر ، وما يدر من غلال !! كما انه قدر بطولة السيد محمد كريم وامر بابقائه حاكما على الاسكندرية وكان مما قاله له :

« لقد اخذتك والسلاح في يدك وكان لي ان اعاملك معاملة الاسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع لذلك اعيد اليك سلاحك وآمل ان تبدي للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » .

ولنا ان نسأل هل ركن السيد محمد كريم لما سمعه من معسول الكلام ، وما اعيد اليه من مناصب والقي له من المقاليد، لا لقد كان يتزعم حركة المهاجمة الشعبية ، ويجمع الثوار فيرسم لهم الخطط في مقاطعة الاعداء واغلاق المتاجر والمصانع في وجوههم ، ومنع المؤن عنهم حتى الماء .. فلم يكونوا يعثرون عليه الا بعد جهد جهيد ، ولم يصدق الشعب يوما ما زعمه له الفرنسيون من اخلاص ، ومع انهم قاموا بعدة اصلاحات ساعدت على تقدم البلاد الا ان المصريين قاسوا اعمالهم بمقياس ( الدين ) فوجدوا فيما يفعلون خروجا عن تعاليم الاسلام وراوا في الحضارة الغربية بعدا شاسعا عن تقاليد الشرق وميوله . فالفرنسي كما هو معهود عنه عاطفي يميل الى اللهو ويولع بالخمر والنساء ، والمصري متدين يذم التبرج ويلزم حدود القرآن فيما يأخذ ويدع لذلك كان الفرنسيون يأتون مجونهم ويشربون خمورهم معتقدين انهم لم يفعلوا منكرا يؤاخذون عليه ، والشعب ينظر اليهم نظرة المغيظ المحنق !! ويرى في جرائمهم فاحشة آثمة وعدوانا جريئا .

قال الجبرتي ( لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري ، والمزركشات المصبوغة ويركبن الحمير والخيول ويسوقونها سوقا عنيفا

مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحراقيش العامة فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش وتداخل معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهن ، وليت شعري اذا كان السفور ومداعبة المكاري جريمة دينية فكيف تكون الخمر والزنا ، وما اتى به المحتلون من الفواحش في رأي الشعب الغيور ) !!

وقد وقعت عدة أعتداءات من الاهالي على الجنود ، واشتبك الفريقان في قتال متقطع ، تلوح بوادره وتختفي في فترات متباعده !! مما اثار القائد الفرنسي ( كليبر ) على السيد محمد كريم وظن له يدا فعالة في هذا الشعب ، فراقب حركاته وتنقلاته ، وشاهده يجتمع مع الثوار ، ويشير عليهم بالراي ويقدم ما يستطيع من العون ، فتأكد لديه خطورته وعزم ان يهتبل فرصته فينكل به ، ليرتاح من خطر يتهدده بين الحين والحين !!

وفرض القائد على المدينة ضرائب قاسية ، فذهب السيد محمد كريم لمطالبته بتخفيضها عن الشعب الاسكندري المكدود !! واعلن رفضه لهذه المطالب المجحفة ، فأسرها القائد في نفسه واتخذ منها دليلا ثابتا لادانته !! ثم راى كليبر ان يعدل ببعض جنوده الى المدن المجاورة عله يجد بها ما افتقده في الاسكندرية من قوت ومؤونة ، وسار الجنود في الصحراء المقفرة حتى بلغوا دمنهور وظنوا انهم سيفيئون بها ظلال الراحة !! ولكن المدينة جابهت دخلاءها بعاصفة رهيبة ومردت عليهم مرودا لم يبق معه مكان للاستقرار ، وتساءل الفرنسيون عن هذا العصيان الخطير ، فوجدوا اسم السيد محمد كريم يتردد على كل لسان ! وسمعوا الكثير عن بطولته وزعامته ، فعرفوا معرفة تامة ان الرجل قد اصبح زعيما شعبيا لا يقتصر خطره على الاسكندرية بل شمل مدن القطر جميعها ، فرجعوا ادراجهم الى (كليبر) ليخبروه عما شاهدوه ولمسوه ، وكانت نفس القائد مهيئة للقبض على السيد محمد كريم فاصدر امره بذلك ثم جاءه ان نابليون بالقاهرة قد وجد بمنزل مراد كتبا ورسائل من السيد محمد كريم تدعوه لمواصلة الجهاد والسير لانقاذ الاسكندرية فايقن انه امام خصم ماكر عنيد يحاربه في اكثر من ميدان وبادر بارساله الى القاهرة لينال جزاءه من نابليون راسا ، فمر بطريقه على رشيد ، وقد احتشد الاهالي لتحيته وارسلوا هتافهم الصارخ يعلن ولاءهم المخلص للبطل المعتقل المستبسل والزعيم الجريء !

وتابع الاسير سيره ، حتى وصل الى القاهرة فاصدر نابليون امره باعدامه مع مصادرة جميع امواله وسمح له ان يفتدي نفسه بثلاثين الف ريال في اربع وعشرين ساعة !

والناظر الى هذا الامر الخطير .. يجد نابليون يبحث عن المال في شره جاشع فهو يعلم ما للسيد كريم من ثروة طائلة يود ابتزازها في غمضة عين !! وهو لا محالة آمن شره اذ انقذه من الاعدام ونزل في اعماق السجون !! ولكنه وجد الزعيم الصابر يسمع الحكم فلا يبدي استعداده لدفع المال، فيطير صوابه ويرسل اليه المستشرق الفرنسي الداهية « فانتور » ليعلن اليه ان نابليون مسلم صح اسلامه وانه يريد الخير كل الخير للمصريين وهو معجب كل الاعجاب بمن يخدم بلاده ويذود عنها لانه تصدر الوطنية الصادقة ، وقد جمع رجال الديوان من صفوة العلماء وخيرة الاعيان فعلى السيد كريم ان يبذل المال المطلوب فداء لنفسه وسيسعى بعد في خلاصه واطلاق سراحه ، ليكون كما كان في طليعة الرجال !! ثم اصطنع الزائر اشفاقا مموها وصاح بصاحبه :

لقد سمح لك نابليون أن تفتدي نفسك بثلاثين الف ريال، وانت رجل غني فماذا يصدك ان تفتدي نفسك بهذا المبلغ الصغير !!

وترقب فانتور بعد محاضرته المنمقة عن نابليون ان يلمس خضوعا مستكينا من أسير مسكين قربت خطواته من الموت حتى اصبح قاب قوسين ولكنه يجد صاحبه يقول في عزيمة واباء .

اذا كان مقدرا علي ان اموت فلن يعصمني من الموت ان ادفع المبلغ ، واذا كانت الحياة مقدرة فلم ادفعه دون استحقاق ؟

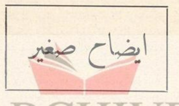
وكانت اجابة خطيرة ساقت صاحبها الى الاعدام الظالم، فادى به الى الشعب رسالة اخرى في التضحية والاستشهاد بعد ان اسلف رسالته الاولى في الكفاح والجلاد !! ورفرفت اجنحة الملائكة للترحيب بشهيد عاطر الذكر جريء القلب يودع وطنه اللهيف ليستقبل عدالة الحق والانصاف السماء!!

* * *

وتمضي الايام فتشرق شمس الحرية على مصر بقيام ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ فينصفه الاحرار اذ توضع صورته مكبرة على راس صور المحافظين في دار المحافظة تخليدا لذكراه ثم يطلق اسمه على شارع من اهم شوارع الاسكندرية وهو شارع التتويج ، ويطلق كذلك على مسجد عظيم بالثغر كان قد اعد ليحمل اسم فاروق ! ولما عند الله اعز واكرم .

**الفيوم** **محمد رجب البيومي**




بقلم محمد المجذوب

عرفته لاول مرة في ( الشيخ بدر ) وذلك قبل اثنتي عشرة سنة.. وكنت اتخذ من تلك القرية مصطافا في بعض السنين.. ولا ازال اذكر اللحظة التي فاجأني فيها ، يقتحم فناء الدار دون استئذان ودون اي معرفة سابقة، وفي حياء بالغ حيا ، وفتح كيس الزاد المعلق تحت ابطه ، ليستخرج ، من خلال محتوياته من البصل والخبز ، كتابا مغلفا بعناية ، وقال لي وهو يشير الى بيت من شعر ابن الرومي في احدى الصفحات : هل تتكرم علي بايضاح صغير ؟.. ثم بين ان مراده معنى البيت واعرابه ، ولم ار بأسا في اجابة طلبه فشرحت البيت ، ثم اعربت مفرداته وجمله في ايجاز ووضوح ، ولم اعجل في ذلك ، اذ رايته مهتما باثبات ما اقوله على هامش الصفحة .. ثم لم يلبث ان طوى الكتاب ، ثم شد على يدي يصافحها في حرارة ، ويتمتم بكلمة مهذبة عبر بها عن صادق شكره ..

ونظرت اليه وهو يغادر الفناء ، ليسوق غنيماته الى راس الهضبة ، وقد عاد الى الكتاب يوزع بصره بينه وبين دوابه .

ولم احتج آنذاك الى كبير جهد لاعلم انه واحد من اولئك الاحداث ، الذين قطعهم اهلوهم للعمل في الرعي، لا من اولئك التلاميذ الذين يقبلون على المدرسة اكثر ايام السنة ، حتى اذا وفد الصيف بفسحته الواسعة تفرغوا لمساعدة اسرهم في عمل عابر كهذا .

وكان في ثوبه البالي ، وسرواله القروي ذي الالوان المتعددة الحائلة ، ثم كوفيته الملفوفة حول راسه في غير عناية .. وبخاصة تلك البقية المفتتة من مداس المطاط الذي كان يطأ به الشناخيب والبلاد .. كان في كل ذلك ما يدل على ان الفتى من الذين يستمتعون بالحظ الوافر من قسوة الفقر ..

وقبل ان يغيب عن بصري تركت الفناء الى داخل البيت ، وفي انفي غير قليل من تلك الرائحة التي نشرها حولي بخار جسمه الناضح بالعرق.. ولم ازد على ان تساءلت في نفسي : وما حاجة مثل هذا الراعي المعدم الى الشعر والاعراب !..

وكدت انسى ذلك الوجه الذي لم اعرف اسم صاحبه لولا انه ابى ألا ان يذكرني بنفسه ظهر اليوم التالي ، وكنا مجموع الاسرة على المصطبة الخارجية ننتظر الغداء ، عندما فوجئنا بهذا الفتى يلقي علينا تحيته ، ولم ينتظر الاذن بل جلس لفوره على حافة المدخل ، قريبا من غسان ، وفي ادب حيي قال له : هل تتكرم بايضاح صغير ؟.. ولم يكن في حاجة الى جواب ، بل فتح كتابا في يده ، وجعل يشير الى خطوط هناك قائلا : هذه الاقواس لا استطيع فهمها دون مرشد .. فعلام تدل هذه الاقواس الداخلية الصغيرة؟.. وعلام تدل هذه الخارجية الكبيرة ؟..

وكذلك ارجو ان ترى فهمي لهذه الاشارات المختلفة : هذا الخط الافقي هو علامة الناقص .. واما هذا الصليب فبعكسه .. انه اشارة للزائد .. اليس كذلك ؟..

وكانت لهجة السؤال مغرية بالاجابة لا تدع مجالا للتردد .. والاسئلة صغيرة ، ولا يكلف ايضاحها اي مجهود .. ثم ان على غسان ان يتخلص منه على اي حال ، فقد احدث دخوله علينا بهذه الصورة وفي هذا الوقت خاصة، مفاجاة غير سارة ، فالمجلس اسري ، والبنات لم يكن على اهبة لاستقبال غريب .. فما ان بوغتن برؤيته حتى هرعن الى داخل البيت .

وعمل غسان بوحي البديهة فبادره بالجواب المطلوب ، في بساطة لا تدع حاجة للاعادة . ولم يبق ما يقتضي بقاءه ، فقدم شكره وانسحب ..

ووجدتني مدفوعا الى الاعراب عن امتعاضي من هذه السماجة المرهقة ، وقلت : هذه المرة الثانية التي يقتحم فيها علينا الدار ، ليلقي مثل هذه الاسئلة التي هي ابعد ما تكون عن حاجة الرعيان .. لا اشك ان في الفتى شذوذا يحسن ان نتخلص منه بوسيلة مناسبة .

ويبدو ان غسان كان اوسع علما مني بامره فقال : انه لا يخلو من شذوذ .. ومن اجل هذا يتحمل الضرب من ابيه معظم الايام .. ان اباه يقتضيه ان يتفرغ لرعاية غنيماته حتى المساء ، وان يختم عمله اليومي بفرارة من العشب يحملها على عاتقه عند العودة من المرعى ، ليوفر للاغنام والبقرة الاخرى طعامها الليلي . ولكن ( م غ ) قلما يكمل عمله المطلوب ، لانه مشغول عنه بالقراءة والكتابة التي لا يدعها ابدا .. فهو مصر على ان ينال الشهادة المتوسطة مهما تكلفه من جهد وعذاب ، ومضطر الى مراضاة ابيه الذي يفرض عليه سلطانه بالعصا، وهكذا يوزع نهاره بين الدرس والرعي وتعبئة الفرارة.. وطبيعي ان ينحصر تقصيره في موضوع الفرارة ، التي قلما جاء بها ملأى .. ومن هنا كانت العقوبة ابدا تلاحقه ، لان اباه لا يرى مثل هذا القصور في اترابه من الرعاة، الذين يحبون الايقاع به ، فيشكونه الى ابيه ، ويقارنون بين عملهم وعمله، ويؤكدون له ان ابنه شديد الاهمال لدوابه ، حتى انه قلما يعطيها حقها من الماء خلال النهار .. وقد اشتهر امره في ذلك ، حتى بات الناس يرمونه بالجنون ، وقد رآه احدهم يستوقفني في الطريق ليسألني عن مشكلة فيزيائية ، فنصح لي ان اهمله

لانه مجنون ، ولان اباه لا يرضى ان يشغله عن مهمته في رعاية الدواب ، التـــي هي وسيلتهـــم الاولى الى الحياة ..

واطرقت مليا افكر في هذا الوصف .. وقد كشف لي من امره ما لـم اتوقع ، وقلت تعليقا على ما سمعت : وما الذي يمنع هذا الفتى من الجمع بين الرعي والدرس !.. بل انني لارى من الخير تقدير طموحه ..

ومنذ ذلك اليوم بـــدا يلقى لدينا بعض التشجيع الذي يعوزه.. والقى هو بثقله فاصبح كثير التردد علينا ، لا يكاد يرى احدنا حتى يبادره بقوله: من فضلك .. ايضاح صغير ..

ولكن الاستيضاحات اخذت تكبـر حتى كدنا نضيق بها وبما تحمله من تلك الروائح التي اعتـادت أن تترك بقاياها طويلا في انوفنا وما حولنا ..

وقد ضاعف ثقل العبء ان الفتى لم يكن على حظ من الذكاء يتناسب مع طموحه ، بل كـان التباين بـين النوعين غير قصير ، ولهـذا كثيرا ما وجدتني ابرم به ، واعلن ضجري من بطء ادراكه فـي دروس القواعـد والادب ، وما احسبه في الرياضيات والعلوم كان احسن حالا .. ولـولا جهـــوده المتواصلة ومغالبته لنفسه لاستحال علي وعلى ابني ان نصبـر عليه طوال تلك الايام ..

*

ومر من الزمن على ذلك الصيف ما كان جديرا بان يمحو من ذهنـي كل اثر لذلك الفتى .. فليست الثماني سنوات بالشيء اليسير في حيـاة الافـــراد . لقـد تبدلت بطرطوس اللاذقيـــة ، وانقطعت كل صلة لنا بالشيخ بدر الا بعـض الوجوه مـن معارفنا القدامى ، تطل علينا بين عام وعام ، كاطلالة الحلم من خلال ذكرياته البعيدة ..

وكنت على وشك الاغفاء بعد ظهر احد الايام ، عندما دق جرس المدخل، في دفقة طويلة ، واضطررت الـى الاســراع نحو البـاب ، لارفع اليد المزعجة عنه فاصمته، وشد ما دهشت حين رايتني بغتة امام الوجه القديم الذي عرفته في راعي الشيخ بدر !.

لقد تغير الكثير من مظاهره ، فهو اليوم في هندام مدني لم يهمل حتى ربطة العنق ، وقد خلص راسه مـن تلك الكوفية العتيقة ليأخذ ما وسعه من الضياء والهواء. وحل مكان المداس المفتت حذاء ذو شريط انيق ، وقـد ترك الزمن اثره في هيكله فهو اليوم اكثر امتدادا ، واوفر لحما .. غـير أن هذا وذاك لم يحـولا بيني وبـين حقيقته التي كانت اشد بروزا من كل تغيير .. ولعل اشد الظواهر الثابتة دلالة على شخصه عيناه .. تانـك اللتان لا تبرحان على سعتهما وعمقهما المعهودين ، ثم هاتيك الوضاءة التي لم تفارق بياض وجهه ، وقد لوحه حر الهجير ، كعهده ايام كان يتلقى اشعة الشمس في غنيماته في هضاب الشيخ بدر ، وحتى رائحته القديمة كانت اول شيء لامس حواسي عند مواجهتـه ، فساعدت على بعث الماضي كله حيا في خيالي ..

وقلت في نفسي وانا افتح له حجرة الاستقبال : ارجو ان لا يكون ثمـة ايضاح صغير !..

ولا انسى انه كان جد مهذب فـي تحيته واعتذاره ، فهو يعلم ان وقت القيلولة غير موافق للزيارة ، ولكنه ، كما قال ، خشي أن لا يجدني في غير هذا الوقت ..

وآنسته ما وسعني .. وسألته عن الاقرباء والاصدقاء .. وعن دراسته، وهو لا يزال مقبلا عليها ؟.. وفـي هدوئه المعتاد اجاب : منذ ثمانية اشهر لم ار الشيخ بدر. قلت : « واين كنت كل هذه الاشهر ؟ قال : في قرية من اقصى هذا الجبل» . فلم افهم مقصده وتابعت : وهل لك من عمل هناك !. قال : بلى .. انني معلم .. ـ معلم في مدرسة هناك !؟.. ولم استطـع كتمان دهشتي : انت الآن معلـم !! وكانه سر بتعجبي فقال : انا معلم منذ ست سنوات ، قضيت اربعا منها في منطقة الجزيرة ، واثنتين في هـذا الجبل ..

وهـــنا تذكرت طموح الشاب ، وحرصه القديم على احراز الشهادة.. فقلت : اذن فقد نلت الكفاءة ، وتركت رعي الماشية الى رعاية الاطفال !..

وفي حماسة لم اعهدها منه اجاب: وتقدمت في العام الماضي لامتحـان الثانوية ، فلم يكتب لي النجاح فيها ، وانا اليوم ازورك لاتدارك على يديك النقص الذي لا بد من استكمـــاله لتحقيق النجاح ..

ولم يشأ ان يدعني للتردد فتابع : انني اليوم ذو دخل ، ومن حقي الا اضيع جهدك بغير مقابل .. لقدكتبت اجوبة الادب على طريقة المحفوظات ، ولم اتعلم كيف اكتب شرحا لنص في مستوى الثانوية .. وكذلك لا اكاد اعلـم شيئا عن العــروض .. وقد قدرت ان عشرين حصة دراسية لديك تكفي لتزويدي بما يدفعني شوطا أبعد .. وها انذا اضع بين يديك المقدار الذي تفرضه مقدما ..

وكنت اتلقى سرده الغريـب في مزيج من الاعجاب والحيرة .. ولـم استطع وعده بشيء ، لان اعمالي اكبر من اوقاتي ، وقد سبق ان اعتذرت لغيره من طالبي الـدروس الخاصـة بسبب ذلك .. وفكـرت ان افضل خدمة أقدمها له هو ان اصله بمدرس من زملائي يحقق له هذه الرغبة .

وعرضت عليه فكرتي .. الا انه ابى الاصغاء الى تفصيلاتها ، وشرح يؤكد انه لن يقبل هذه الدروس الا من قبلي .. ومن اجل ان ييسر علي الامر جعل يحاول اقناعي بانـه اليوم غيره بالامس ، وان ذهنه اصبح اكثر فهما مما عهدت ، وهذا يعني انني لن اجد عسرا في تعليمي .!

وتغلبت عاطفة الاعجاب بالفتى في نفسي على كل عائق ، ورضيـت ان اعطيـه الدروس المطلوبـة ، على ان يساعدني بجهد لا يفتـر .. واتفقنا على ان تكون الحصص ثلاثا في كـل اسبوع، احداهن عقيب ظهر الخميس، والاخريان بعد عصر الجمعة .. وقد اخترنا هذين اليومين مراعاة لعمله

# خصب

عمـري اخصـب
قلبـي .. كوكـب
يـرعـاك بضـوء ممراح
يهواك بشـلال حنان
يزرع في درب الاحزان
لخطاك طيوف الافراح !

عمـري اخصـب
لصبا يتألق فـي بلدي
وشذى يتندى ملء يدي
جـدبـي ازهـر
فكـري اورق
يـا زورق كـل الاحلام
يا زهرة زهرة الهامي !

عمـري اخصـب
يا نجمـة أنداء صباحي
يا أملا يجمـع أيامي
ويعيد صبـاي وانغامي
لهواك أعيـش لمستقبل
يتضوا .. كالطفل المقبل!
يتبسم وردا لا يذبـل
لسناك .. لدنياك النشوى
عمـري اخصـب !

الرياض — حسن عبد الله القرشي

---

الذي لا يستطيع عنه انفكاكا فـي سواهمـا .

وبدانا درس الخميس الاول ، ثم اتبعناه بدرسي الجمعـة ، وزودتـه بوظائف اسبوعية مساعدة ... ومنذ ذلك اليوم بدات اسفاره الاسبوعيـة بين الجبل واللاذقية ، ليتلقى الدروس في مواعيدها ..

وبـذل الفتى جهدا مشكورا ، فكتب واستظهر واعـرب وقطع .. ولكن مجهوده الذهني ظل دون مستوى نشاطه ، كايامه القديمة تماما . وجاء موعد الامتحان ، وخاض معركته في صبر واستماتة .. ورحنا نترقـب النتيجة ، وقرأ في قائمة الناجحين اسمه ناقصا ، فلم يشأ ان يطمئن نفسه ، فقصد الى مصلحة الامتحانات ليتبين الحقيقة ، فاذا الناجح غيره! .. وهكذا استقبل سقوطه الثاني من غير تذمر . وجاءني يقول : لم يكن بيني وبين النجاح سوى بضعة علامات .. وهذا ما يضاعف رغبتي في مواصلة الجهاد حتى النصر ، واني لاعتبر مجهوداتي السابقة وما قراته من كتب وتلقيته من دروس زادا ثقافيا ،امدني بالكثير من الخير .. واحب ان تعدني بدروس اخرى ترتب لي مواعيدهـا منذ الآن ..

وواعدته .. ومنـذ مطلع العام الدراسي التالي طفق يستأنف اسفاره الاولى ، ليحضر الدروس في مواعيدها المقررة ، واضاف الى دروسـه فـي العربية دروسا اخرى في الاجنبيـة رتبها له مع احد الزملاء .

وحين حان الامتحان الثالث كان اوفر استعدادا له ، ولهذا لم يفاجا بخبر نجاحه عنه اذاعة النتائج .

*

وكنت ظهر امس عائدا الى الدار ، عندما فوجئت بيديه النـديتين ابدا تهزان يميني .. وفي حرارة يحييني ثم يقول : سالت عنك في الدار فقيل لي انك في المقهى ..

قلت : مرحبا بك .. هل ثمةايضاح صغير ؟؟.

وادرك ما اريد فابتسم وقال : اجل .. انه ايضاح وتوجيه .. واخذ يشرح لي قصده: انني استعدلامتحان اهلية التعليم في العام القادم ، وفي وسعي الاعتماد على نفسي في دراسة موادها جميعا ، الا الموسيقى وبعض تطبيقات عملية في التشريح .. فارجو ان تصلني بمدرسين لهما ، وتوصيهما بي خيرا ..

وفعلت ما اراد .. ولـم انس ان اذكر للمدرسين طرفا من سيرته ..

وبعد ايام لقيت مدرس الموسيقى، وسألته عما صار اليه تلميذه المعلم ، فقال : انه ذو نهم مخيف .. يريـد التهام منهاج العام في بضعة ايام ..!

قلت : وبهذا النهم استطاع التغلب على ظروفه القاهرة فتحول من راع الى معلم .. ولا استغرب ان تقرأ اسمه في الصيف القادم بين الناجحين في اهلية التعليم .. على انني واثق انه لن يكتفي بهذه الشهادة ، بل لن يقف اندفاعه دون الشهادة الجامعية .

قال صديقي مدرس الموسيقى :حقا ان الذي لمسته فيه من قوة الطموح ليستحق الاعجاب ..

قلت : ولكن عبرة هذا الطموح هو ما يؤكده لنا من ان الذكاء لا يشكل سوى عنصر محدود الاثر في حيـاة الانسان ، اما التصميم والارادة فهما الاداة الاولى في كل تفـوق من شأن الجهد البشري ان يحققه ..

اللاذقية — محمد المجذوب



احمد العدواني

# احمد العدواني الشاعر المفكر

بقلم قدري قلعجي

اذا كان لكل نهضة من نهضات الشعوب رجالاتها في الميدان الفكري ، وعباقرتها في المجال الفنـي ، فان اسـم احمد العدواني يبرز في تاريخ الكويت الحديث كرجـل فذ من رجالات الفكر والادب والفن .

لقد استطاع احمد العدواني باصالته الفنية ، وعمقه الفكري ، واخلاصه في تجاربه الابداعية ، ان يهدم جدران الصمت من حوله ، رغم تواضعه الجم وعزلته الادبية ، فتجاوز اسمه حدود الكويت ليتعرف اليه المثقفون العرب في مختلف اقطارهم ، ويكبروا فيه الرجل المخلص لقضايا الفكر الخلاق والنهضة الادبية المبنية على اساس من التجربة الصادقة والادراك العلمي السليم ، كل ذلك في غلالة من الفن تقول : ههنا معلم !

واذا كانت الجراة في عرض الحقائق الفكرية ، والبحث عن المعاني الكبيرة للحياة ، صفة من صفات الفنان الاصيل ، فانها الصفة الاولى في شخصية العدواني ، وقـد اهلته ثقافته العميقة لان يعيش تجربة النهضة الفكرية ليس في الكويت وحدها ، وانما في مختلف اقطار العروبة ، وشتى امصار العالم ، وقد ادرك بثاقب نظره ان قضايا الفكر قد اصبحت عالمية ، وملكا للبشر اجمعين .

لقد توفرت في العدواني كافة الخصائص التي يجب ان تتوفر في رجل الفكر المعاصر ، من رباط يشده الى الارض التي يعيش عليها والمجتمع الذي يدرج بين ظهرانيه ، الى عاطفة لها من القدرة على الشمول ما يؤهلها لاستيعاب هذا العالم وفهم اسرار التطور في تاريخه ، وحاسة فنية تنفذ الى صميم الاشياء والاحداث فتمسها مس الحذق والعبقرية .

وليس سهلا ان نكتب عن العدواني ، ونتعرض لنظرته الى الحياة ولآثاره الفنية ، الا اذا غصنا في لجة تجاربه بعيدا في الاعماق ، كما يفعل صياد اللؤلؤ اذ يغوص على الدر الثمين تحت امواج بحر هائج ..

وكالاغلبية العظمى من ابنـاء الكويت ، قبل نهضتها الحديثة ، درس احمد العدواني اذ كان فتى ، فـي كتاب متواضع ، حيث تعلم القرآن قراءة وتلاوة ، وانتقل الـى المدرسة الاحمدية ، والثانوية المباركية ، وقد شنفت اذناه منذ حداثته بآيات القرآن الكريم معجز الحرف العربي ، مما كان له بعدئذ اثره البعيد في عبارته وسلامة اسلوبه..

وقد حاول قرض الشعر وهو يافـع ، لكنه لم يلق من التشجيع ما يدفعه الى خوض اللجة التي احب والميدان الذي فضل ، الى أن كان عام ١٩٣٩ الذي استقبل فيه الازهر الشريف بين طلابه الشاب الكويتي الفنان ، واشبع نهمه باطلاعه على كنوز ثقافتنا العربية من نثر وشعر وابحاث دينية وفلسفية .. وما هي الا بضع سنوات حتى تخرج العدواني من الجامعة الشريفة ، وفي نفسه ميل جارف الى مزاولة الصحافة الادبية والفكرية ، فاصدر مجلة « البعثة » التي استقبلتها الاوساط المثقفة في الكويت وغيرها من الاقطار العربية استقبـالا حسنا ، ومن اولى ثمرات هذه الدوحة تلك النظرات النقدية والتأملية التي لو دعاها المتكبرون والمتعالون لخففوا من غلوائهم ، واخفضوا من جناحهم ، ولعرف التواضع الى قلوبهم سبيلا ..

ولم يكتف الشاعر التواق الى مزيـد من المعرفـة ، بما حصل عليه في مسقط راسه وفي ارض الكنانة ، بل شرع نوافذ نفسه لتستقبل جميع التيارات الثقافية ذات الاثر الاصيل في تطوير الفن والفكر العالميين ، فتعمـق آراء الفلاسفة ، واطلع على كنوز الادب ، وآمن بسنـة التطور الخلاق ، ايمانه بوحدة الثقافة الانسانية ..

وقد خلص من ذلك كلـه الى الاعتقـاد بان لكل نظام اقتصادي افكارا معينة لها قوة الدفع والتطوير ، واعتبر الادب جزءا من الحياة العامة للشعب ، واحس بالعلاقة بين العلم والفن احساس المثقف الأصيل ، وجند نفسه لخدمة الجانب النامي من الحياة في الوطن العربي والعالم اجمع..

وعرف العدواني منذ تجاربه الفنية الاولى بانه شاعر هواية لا حرفة وطبع لا كلفة ، وانه يطلق نفسه على سجيتها ويدع لها الحرية في ان تعكس ما تتأثر به من الاحداث ، ولكنه حتى في هذه العفوية الفنية انما يفيض عن عمق في التجربة واخلاص في الرؤية الموضوعية .

ان افذاذ الرجال ، ولا سيما في ميدان الفن ، عاطفيون منفعلون بالاحداث وفاعلون في موكب التطور والحضارة ، يفلسفون الامور ويقلبون اوجه النظر في قضايا المجتمع

*** يبدأ الكاتب بهذا الفصل سلسلة من الابحاث عـن ادباء الخليج العربي ، ويسره ان يتلقى من ابناء هذه المنطقة الفنية بالكفايات ، آثار ادبائهم وسير حياتهم وكل ما يساعد على القاء النور على تلك الطاقات المنسية والمواهب المجهولة .**

والوجود الانساني ، واحمد العدواني احد هؤلاء الذين خاضوا غمار الحياة وغايتهم ان يسبروا اغوار الحقائق ، وتصدوا للايام وهدفهم ان يعجموا عودها ، وان كانت التجربة الاولى مرة فيها شيء من طعم الصاب ونكهة العلقم:

**مرت الايام تترى   وقوانا باستلاب**
**لم نجد الا عناء   وشقاء في الطلاب**
**اين احلام العذارى   اين آمال الشباب ؟**
**اجهز الياس عليها   فطواها في التراب**
**ان ما ظن سحابا   لم يكن غير سراب**

صدمة هي ولا شك عنيفة ، لانها نتاج ذلك التمزق والبعد ما بين مجالي الواقع والمثل ، والحقيقة والحلم ، والحياة كما هي وما يجب ان تكون عليه ، في ردود عاطفية تتهاوى فيها صروح المثل وتضيق دائرة الحياة انغلاقا على الذات واستبعادا لصور الماضي ورؤى المستقبل ، وعيشا للحظة الزمنية تمسكا باذيالها وانتهابا لجناها :

**الآن .. لا قبل ولا بعد   الآن .. نهر ما له حد**
**يجري بزورق آلامي واحلامي   ويرفع العلم الخفاق قدامي**

*

**وموجه ؟...ان موج الآن مضطرب   للعيش والموت فيه قصة عجب**
**تدور ، والزورق المختال منطلق   نشوان ، ما همه خوف ولا عطب**
**سحر الحياة سقاه خمرة رقصت   في ذاته طربا ، ما مثله طرب**

*

**الان احيا ، فلا تذكر لي الآنا   الا الحياة اهازيجا والحانا**
**كاس بكفي ملأى كيف اتركها ؟   وأعبر الآن باكي القلب ظمآنا**
**وكيف ارمي باحساس اجرده   فكرا ، فاطفيء للاشواق نيرانا**
**من حلل الزهر يبغي سر روعته   تحول الزهر اليافا وعيدانا !**

ومن هذا « الآن » الذي انطلق بـ «انا» الشاعر ، وبغفلة عن « الفكر » الذي اذا ما استيقظ حالت تلك النار رمادا باردا ، اطلت الذاتية الفردية ترى الوجود جميعا من خلال تلك العدسة المزينة للواقع ، والداعية الانام ـبلسان الدنياـ لكي يحيوها على خير ما تكون الحياة وامتع والذ ، والى ان يجعلوا تلك الحياة ضربا من ضروب العبادة :

**قالت الدنيا لاهليها   مقال الناصحينا :**
**جهل الحكمة قوم   تخذوا الاحزان دينا**
**عرف القصد اناس   تخذوا الافراح فنا**
**كلما اجدب مغنى   لهم حلوا بمغنى**
**واذا ضاقت بهم دا   ر مضوا عنها لدار**
**وهبوا انفسهم للاس ، حتى في القفار**
**كل ما جدد في النفس شعورا بالوجود**
**واراها صورا تفصح عن حس جديد**
**فاجعليه هدف المسعى ، وعنوان السعادة**
**ولتكن منك استجابا   ت اليه وعبادة**

ويبلغ الشاعر نهاية هذا الشوط غير مقطوع الانفاس بقوله :

**تمتع قبل ان تطفيء ريح الموت مشعالك**
**تمتع قبل ان يغمر ظل الشيب آمالك**
**فلا تبقى سوى الحسرة والعبرة ، والدمعة**
**تمتع ايها الطائر ما دامت لك المتعة !**

لكن الشاعر الذي انطوى باحساسه على ذاته يضن بهذا الاحساس ان يجرده « فكرا » يطفيء نار الشوق في كيانه ، لا يلبث ان يجد ذاته أمام ذلك الفكر الذي من اميز ميزاته انه لا يرى الكون الا من خلال تصارع الاضداد فيه ، من قديم ومحدث ، وجامد ومتطور ، وخير وشر ، في شرعة تؤمن بغلبة الحديث على القديم، وظهور المتطور على الجامد، ورجحان كفة الخير على دعوى الشر ، وان الانسان راس هذا الوجود والآخذ بزمامه .. وهكذا يخلق الشاعر خلقا جديدا :

**لم اعد ذاك الذي كان زمانا   ذاك عهد كنته حينا .. وكانا**
**وانتهى الامر المقدر   يا رفاقي انا ماض اتطور**
**كل شيء في كياني يتغير**
**ان هلي كل من روض نفسه   وتحرر !..**
**وتراثي كل ما جدد غرسه   ثم اثمر !..**
**يا رفاقي .. انني اخترت طريقي بارادة :**
**لم يحل دوني تقليد وعادة**
**انا كون يتطور !**

ويهتف الشاعر ، ذلك الكون الصغير الذي احتوى الكون الكبير ، بسنة التطور والتقدم ، على راس القافلة ، يحدوها باغنية الذات المتمثلة موضوع الحياة الجديدة خير تمثيل ، يهيب باخي طريقه ان يتابع سيره اذا ما صرع دون غاية ، بلفظ يهز الاعماق ويحرك الجوامد ، في نفس شعري متألم، واسلوب فلسفي متمرد ، يطبعان نتاجه بطابع انساني عميق قريب من نفوس المعذبين في الارض المتطلعين الى أسمى الغايات وارفع الدرجات :

**يا اخي .. ان مت لا تسكب على قبري دمعة**
**بل خذ الشمعة من كفي، وكن في الليل شمعة**
**انني منك قريب ، كلما ضوات بقعة**
**وتركت الليل يهوي ، قطعة في اثر قطعة**

ثم يشد بأخي فكره هذا بسبب الحياة الجديدة ، داعيا اياه في معركة التاريخ لمصير الحواريين الذين قضوا دون معتقداتهم ، هادئي النفوس ، مرتاحي الضمائر ، خالدين على الزمن ، عاصين على المنية :

**يا أخي .. سر ، ولتكن كبش فداء او ضحية**
**طالما روت ضحايا المجد ارض العبقرية**
**فاتت بالنبت ثارا تتحاماه المنية**
**جارف التيار كالسيل كالبركان وقعة**

ويفلسف الشاعر الزمن، ورحلة الوجود في فلكه الدوار، وقصة حياة الانسان في خضم هذا الكون ، وحكاية ايام العمر التي تتناثر في مدار القدر المحتوم ، في قصيدة رائعة هي « السنة الماضية » التي ما ان نتعمق معانيها حتى نحس المأساة العميقة التي يعيشها ، ويحاول التغلب عليها، والظهور على متناقضاتها ، ولكن هيهات ..

ليست شهورا عدها اثنا عشر ..
مرت على فلك يدور
منذ القدم
لكنها .. لحم .. ودم
سلك من العمر انتثر

# قالت عرفتك ...

قالت عرفتك في صباك مبذرا — للمـال تنفقـه بـلا اشفـاق
ماذا ادخرت من الشباب وقد فشا — فيك المشيب وحان عهـد فـراق
فاجبتهـا : يا هنـد حسبك انني — يـوم الوفـاء كسلسـل رقـراق
لم لا اجود علـى الفقير ببعض ما — جـادت علـي بـه يـد الخـلاق
ان اثقلت جسمـي الكلوم ولم يعد — بي مـن قوى للسعي في الاسواق
اسلمت امـري للالـه وعطفـه — فهـو الكريـم مفرق الارزاق
مـا اوجد اللـه الحيـاة لمنعـة — في الكف او للشـح فـي الاخلاق
بـل للنـدى والاريحيـة والقرى — للبــذل والارفـاد والاغداق
فاذا رنـوت الى الغمـام لقيتـه — يغشى الربـى بسحابـه المهـراق
يـروي الحقـول خمائلا وازاهرا — ويسيـل منسجمـا على الاوراق
واذا نظـرت الى الطبيعة شمتها — تواقـة يا هنـد للانفــاق
مخضلـة الاكنـاف وافيـة الجنى — مفتوحـة الكفيـن للطـراق
تمشي علـى نظم الكمال يسنها — عـدل الحكيم وحكمـة الرزاق
خلـع الجمال على الحياة يجودها — كـرم الالـه بفيضـه الدفـاق

**الارجنتين** — **فائق جبور**



ومضى يحـور
الى عـدم
ستظل شمس الافق باسمة السنا
ويظل ضوء البدر يخفق بالمنى
لكنما ... اعمارنا
آلامنا .. آمالنا
طويت لها صفحات
وتبعثرت حيـوات
يا ليتنا مثل الشهور !..
ولنا مواقت في الغياب وفي الظهور
مثل البـدور ..
ونظل في فلك يدور
شهوره اثنـا عشر !

وللاستاذ العدواني آراء متحررة قيمة في قضايا الفكر، وهو يؤمن بالانسان ويعتقد بان المبادىء والنظريات يجب ان تسخر لخدمته لا ان يسخر الانسان لخدمتها . وفي رايه ان حرية الاديب تتعارض والادب الملتزم المحدد بقيود النظريات والمصالح الحزبية . اما الشعر فيجب الا يقيد الا بقيود الفن التي هي من شروط نجاحه .

وقد عمل العدواني على رفع مستوى الاغنية الكويتية وله في هذا المضمار آثار رائعة ، وهو يقول : « ان التعبير باللغة العربية الفصحى اطوع واعمق واوسـع وادق من التعبير باللهجة العامية وان اللغة كائن حي متطور، وتطورها يجب الا يخرج بها عن طبيعتها والا اصبح التطور فوضى ، فتطور اللغة العربية يكون باتساعها وصياغة جملها ولا يكون في انتقالها الى اللهجات العامية الدارجة ، هذه اللهجات التي يجب ان نرتفع بها الى المستوى العربي الفصيح ، وعلى هذا الاساس وبهذه العقيدة حاولت ان أجرب في اللهجة الكويتية فتناولت الاغنية الكويتية وادخلت عليها الفاظا فصيحة مفهومة الى حد ما ، واخيلة واضحة مستعارة من الشعر العربي الاصيل ، وبايجاز حاولت ان أدخل عنصرين في الاغنية الكويتية : الخيال واللفظ العربي المفهوم الى جانب تنويع الاوزان » .

*

لا شك في ان الكويت ، وهي مقدمة على نهضة فكرية شاملة لتعتز باحمد العدواني المفكر الحر والفنان العميق والشاعر الذي يتفاعل مع بيئته الكويتية ، وينفعل بمحيطه العربي ، ويستوحي القيم الانسانية الخالدة .

**قدري قلعجي**

# من الشعر الايطالي

### من ديوان الحطب الاخضر

**Il legno verde**

### الشاعر الشاب انتسو فابياني

**Enzo Fabiani**

### ترجمة عيسى الناعوري

•

## تعريف

انتسو فابياني شاعر من الشعراء الشبان الايطاليين الذين تفتحت مواهبهم الشعرية في اعقاب الحرب العالمية الاخيرة . وقد ولد في قرية فوشيكيو، على مقربة من مدينة فلورنسا، عام ١٩٢٤ ، ويعيش الآن في ميلانو حيث يعمل محررا وناقدا ادبيا لمجلة ( الناس ) كبرى المجلات الاسبوعية هناك ، ويساهم في تحرير بعض الصحف الادبية الاخرى . وهو يجنح في شعره الى الغموض الهرميتي ، وتغلب على شعره الكآبة والتشاؤم . وقد صدرت له مجموعة قصائد غنائية قصيرة بعنوان ( الحطب الاخضر ) ومجموعة اخرى صغيرة تتألف من ثلاث قصائد طويلة جعل عنوانها ( النفس المحترقة ) .

والقصائد التالية مترجمة عن ديوان ( الحطب الاخضر ) .

( ع . ن )

❋

## اعتراف

**CONFESSIONE**

تسألونني عن السر الخفي
في الحيوان الذي يجأر ،وفي القلب الجريح
وفي الندم ، وفي الماء
التي تنهب جسدي وذاكرتي

❋

أنا الناظر اليكم لست طاهرا
انني شمعة مطفأة ، وكتاب تالف .
انا المتحدث اليكم لست طاهرا
انني عظام مجمعة ، وعقل غير كامل .

## تأمل

**MEDITAZIONE**

السر هو السحر
والتأمل العاري
مجنون من يقول ان التماثيل والكتب
والمراكب ، وروائع المرمر الاسود
في هذه الحياة غير المفتداة ، هي مجرد اشكال.
انه معتوه — كالصديق
الذي يعيش بقربي
وادعا ، يطوح بطفولته
في مملكة لا شكل لها

❋

ان قرار الادانة مهيأ له .
وعلى الانبياء ذوي الانوف اللامعة
والقلوب الصمغية
ان يتركوا بسلام من كان قريبا الى الله .
ان العالم فانوس مطفأ
يتأرجح في الرياح الضبابية

❋

ان من كان معافى لا يجوز الضغط على معصمه:
بل بالانامل الحارة ، وبكل لطف ورقة
يمكن جس خفقات تلك العروق المتدفقة بالدم





انتسو فابياني

## الليل

**NOTTE**

كتاب حب ، وصدفة
باسم ، واوراق اشجار .
والنفس تعود
الى رؤى الماء والازهر .

❋

اشجار النخيل والاسل في الظلمة القرمزية
اماكن استراحة للاسماك والعصافير
وزفيرك
يوقظ البوم والفراش

❋

البومة تفتح عينيها
وترى الليل ذا النجوم
وتطير في الظلام الخفيف العجيب
والبلابل يضغط على غصن الخوخ
وتنفصل الثمرة الفجة عن غصنها

## حين اصبحت الكرمة

**QUANDO LA VIGNA**

انت تركت الانسان
يهيم مع افكاره
كالرمانة في شهر ديسمبر

❋

لقد هجر الحقل
وحمل معطفه ومطرته
وحمل معهما حزنه وشقاءه .
لقد اصبح العمل في الارض عبثا
حين اصبحت الكرمة لعينة .

❋

انه يحمل معطفه ومطرته
ذلك الانسان الذي تركته
يهيم مع افكاره

## مساء

**SERA**

العصافير تطير فرحة
بينما يرصع القمر الآفاق .
ويعود بنا الفكر
الى ايام الهناء القديمة .
وحين كنا بكثير من الصرامة والاهتمام
نوالي تاملاتنا في الظلال

كانت الحسان يمضين على الارصفة
بيضا ، خفافا
وشفاههن وعيونهن
يجلوها نور القمر . وكنا عندئذ
نتامل في الظلام بكل حبور واهتمام
كالشيوخ الحكماء

*

اين كنت حينما كانت النار
تحرق عظامي وروحي
وكانت تنهداتي تقلق المساء
والعصافير تقف على اعواد القصب
مرتعشة في الهواء ؟

## في هذه الصحراء

## IN QUESTO DESERTO

الباحث القاسي
يجرنا مع الرمل من الاعماق .
نحن بعض الحصى

*

وسيبقى من العالم
الكاس التي
قدمت في ليلة شتاء
والرداء الذي بيع لاجل سيف

*

بهذا الايمان ، وفي هذه الصحراء
نعد الايام كحبات الحنطة
ونستمتع بالازهار المحترقة
من الحيوان المسوق الى المسلخ .

*

لن نكون مصدر غنى لاحد
فنحن زيتونات حالت الى رماد

## النار تحت الرداء

## IL FUOCO SOTTO IL MANTELLO

من جديد ينخدع الانسان
وتتهدم احدى الصور .
هنا تلمسين ثقل نفسه
فهو يخفي النار تحت ردائه .
ها هي مرآتنا وقيدنا ،
الشرارة التي سرعان ما تغيب
تحت الرماد .
ها هنا الفتيات والرفيقات ،
وهناك الملكة
التي يفتتحها لنا العنف

## ابــراج وعظام

## TORRI E OSSA

ابراج ، قائمة في الذهن .
زيتون في الظلام . وحيوانات خرس .
الاسطبلات مفتوحة ، والعاصفة
تهلل في الرياح والغيوم

*

بعد ان باءت بالفشل كل لعبة ، واستــردت الارباح
وتحملت كل شيء ، وباركت كل شيء
اتجه نحو مكان الاستراحة
كافعى كانت تتامل في الشمس

*

ابراج بعيدة ، وعظام في الذهن .
لقد بعت الرداء واحتفظت بالسيف
وها انا اقف في الليل باسما
ويمر رجل بحقول الزيتون
وينفخ في وجوهنا كاننا تماثيل

## حينما تظهــر

## QUANDO APPARIRAI

انا اعلم انك حينما تظهر لي ابديا
ككلب الرعاة
سأقذف بنفسي الى التراب
لقد سحرني وجه ورقصة
وكنت اظن ان الفتاة في شخصك .
حينما تظهر لي
كما يظهر رب البيت امام اللص
سأتقبل سوطك ضاحكا .
في ذكرى الوجوه والاجساد .
وفي نفس الاجساد والارض

## رعـــاة

## PASTORI

كالريح فوق الاراضي المرتاحة
تنحني النفس
تحت ذلك الخداع المزدوج .
كانت تباشير ليل ، ليل صاف
حين تركنا القطيع للذئاب
جريا وراء الهوى .
كنا نشعر بان تاوهات الليل تاوهاتنا

وكان الخوف يملأ قلوبنا .
وعند الفجر ، امام الفراغ اللامحدود ،
عدنا وحدنا دون قطيع

## نــداؤك

## IL TUO RICHIAMO

واذا ما صرخت بنا قوة :
« اخرجوا من القبر »
فلن نصغي اليك .
لقد اعتدنا العتمة
واعتدنا العناكب والصمت
في هذا الوجود
لقد دعوتنا من قبل
ولكنك لم تنتخبنا .
ورأيناك تبتعد بالقطيع
في وسط الغبار .
اننا هنا في أمان ،
نتحدث بذهن صاف
عن ذكريات الرفيقات
اللواتي كنت تمضي بنا اليهن
وعن المراعي التي كنت تعدنا بها

## اغنيتان

## CANZONI

يا الهي ، كم تشبه نفسي
عصفورا ميتا
اضاعه الصياد
فاختفى بين الاعشاب .
ان مخلوقتك
التي كنت تسهر عليها كل ليلة
ليست سوى
جلد ارنب
لاصق بالتراب

*

امكث بعيــدا
كالفلاح
صاحب الزيتونة المقلمة الاطراف
تنظر الينا نظرة سوء
كما ينظر الراعي
الى الشاة العقيمة

*

هكذا ننفس عما بنا من الم وعناء .

عمان عيسى الناعوري



نقولا يوسف

# لقاء مع ملك راج اناند

بقلم نقولا يوسف

ما زلت اذكر حديثه الممتع الصريح.. ووجهه المشرق الاسمر الصبيح.. فان الاثر الذي يتركه حديثه وصورته، وسلوكه وشخصيته – يتسرب الى القلب هينا رفيقا، ويرسب عميقا – تماما كالاثر الذي تحدثه قصصه الانسانية، الفائضة بالعطف والرحمة، والبساطة والقوة معا..

كان ذلك منذ عامين، حين التقيت لاول مرة بالقصاص والناقد الباحث الهندي الكبير: «دكتور ملك راج اناند» – وكان جالسا في ركن من قاعة الفندق المطل على النيل بالقاهرة يتحدث مع زميلته القاصة الصينية الرشيقة – «هان سوين» – التي سبقتها الينا على شاشة السينما روايتها: «شيء كثير الروعة».. وقد جمع الفن والشرق بينهما في جلسة وقور، اضفت عليها شهرتهما العالمية في ميدان القصة، اضواء اجتذبت انظار الرائحين والغادين حولهما من كتاب وشعراء – يوم جمعت القاهرة بين ذلك الحشد من الادباء القادمين من اطراف آسيا وافريقية، المختلفين في الالوان والاجناس واللغات، والمتفقين على الاهداف والمثل والغايات..

وكان اسمه وصورته ومؤلفاته المطبوعة بالانجليزية، قد سبقته الينا ايضا قبل ان نراه ونستمع اليه.. ومع ذلك خيل الينا حينما كان يهب للمصافحة في سماحة شرقية، وفي وقفة عسكرية – مع قامته الربعة، ومنكبيه العريضين، وبذلته «الكاكي» المغلقة عند الرقبة، ووجهه الاسمر، وشعره الفاحم الغزير، وعينيه السوداوين الذكيتين – اننا امام ضابط في الجيش من اهل الصعيد عندنا.. والواقع ان الرجل ابن لضابط في جيش الهند، وشرقي هندي صميم، خريج السلالات التي انصهرت في الهند خلال الدهور – من سود وآريين ومغول..

وكان يوم التقيت به منذ عامين، في السابعة والخمسين، جم النشاط، موفور الشباب، دائب الحركة، متدفق الحديث، لم يفتر نشاطه طيلة اسبوع المؤتمر سواء في جلساته الخاصة مع الادباء والصحافيين، ام في لجان المؤتمر والاجتماعات، ام في الولائم والحفلات.. وفي خطابه البليغ امام الرئيس جمال عبد الناصر، نيابة عن الوفود في الحفل الذي اقامه الرئيس لاعضاء المؤتمر بقصر عابدين.. وهو النشاط الذي عرف به في بلاده – فالى جانب كفاحه الطويل في حركة الهند التحريرية مع غاندي ونهرو وسائر القادة، وما انتج بالانجليزية من مؤلفات نقدية، وروايات ومجموعات قصصية.. وما نشر من شعر ومقالات بالهندية، فهو دكتور في الفلسفة من جامعة لندن، واستاذ يشغل كرسي تاجور للفن في جامعة البنجاب.. ورئيس تحرير مجلة «مارج» للفنون، وعضو باكاديمية الفنون والآداب، ومشرف بدار نشر الدولة..

وتسأله عما شئت من مسائل بلاده، فيجيبك في افاضة وتركيز، وفي لغة انجليزية بليغة يشوبها احيانا لكنة يضيع فيها بعض الحروف.. والابتسامة على وجهه، والصراحة والتواضع في لهجته..

حدثنا عن بعض اهتماماته.. وعن بعض مؤلفاته ورواياته.. وعن القصة الهندية الحديثة وكتابها.. وعن الرقص والمسرح الهندي.. وعن تاجور ونهرو وغاندي.. وعن المستقبل المنتظر في الهند والشرق العربي.. وعن القصة العربية التي يقراها اليوم مترجمة الى الانجليزية، وهو معجب بكتاب «الايام» لطه حسين، ويسعى الى التعرف بمؤلفه شخصيا.. واعلن اعجابه بثورتنا التجديدية وبالرئيس جمال عبد الناصر، في الخطاب الذي القاه امامه في حفل الاستقبال بقصر عابدين..

ويحب ملك راج اناند شاعر بلاده الاكبر تاجور، ووضع عنه كتابا بعنوان: «تحية الى تاجور».. وهو في رايه عملاق آسيا كلها لا الهند وحدها – ويفوق نهرو الاديب في الطاقة الفنية، ولكنهما يتساويان في الطاقة الانسانية والنظرة العالمية واعتبار الحضارات البشرية ميراثا شائعا بين مختلف الشعوب، والثقافات العالمية النابعة من العقول المتحررة ملكا للجميع – طالما لا تعترف بالتمايز الجنسي واللوني ولا تحيد عن مبادىء حقوق الانسان..

واصبح ملك راج اناند اليوم في مقدمة كتاب القصة المعاصرين في الهند، ممن تخطت شهرتهم خارجها.. وهو مثل الكثيرين من ادبائها المحدثين يكتب قصصه المستلهمة من حياة مواطنيه في لغة انجليزية برع فيها وتفوق فكانت رواياته جسرا جديدا يصل بين الادب الحديث في بلاده وبينه في سائر البلاد..

وكان مما نشر له في الانجليزيـة مـن قصص طويلة : « الاجير – ( كولي ) » ، و « المنبوذ » ، و « القلب الكبير » و « سبعة ضيوف » ، و « ورقتان وبرعوم » ، و «القرية» و « عبر المياه السود » و « السيف والمنجل » و «المحبون» و « حياة امير هندي » . . .

وله عدد من المجلدات الجامعة لقصصه القصيرة مثل مجموعة : « اتحاد الحلاقين وقصص اخرى » . . ومن اقاصيصه اللطيفة : ثمن الموزتين ، والواجب (١) . . .

واما مؤلفاته في البحث والنقد فاشهرها : « معذرة الى البطولة » ، والكثير من آرائه الفلسفية والفنية . . (٢)

وفي قصصه تجتمع خواص شريط بينها في وحدة–فهي هندية الروح والطابع ، ومسرحها بلاد الهند المنوعة البيئات، وابطالها من مختلف طبقات الشعب – وبخاصة الفقيرة منها والمنبوذة والمكافحة . . وقد شهد – خلال تجاربه الذاتية– من صور ضعفها وحرمانها ما دفعه الى اخراج تلك الصور المعبرة الهادفة . .

* * *

وقد ولد ملك راج اناند بمدينة بيشاور باقليم البنجاب في الهند عام ١٩٠٥ – من اب جندي في الجيش ، وام فلاحة من وسط البنجاب . . وكان جده صائغا للفضة والنحاس . .

وقضى بعض طفولته وصباه في الريـف ، وعـاش مع الفلاحين ، واستمع الى اغانيهم واساطيرهم . . وشاركهم افراحهم واتراحهم . . ثم راح يتنقل مـع ابيه في ربوع القارة الهندية ذات الستمائة مليون نسمة – مع جنود فرقته . . ويتعرف الى شعوب بـلاده ، وعـاداتهم ، ومذاهبهم ، ولغاتهم . . فكانت اشتات الانطباعات التي تختزنها ذاكرته الناشئة طوال تلك الرحـلات ، موردا لا ينضب معينه لبناء قصصه ، وتصوير شخصياتها ، كما كانت احداث كفاح الهند كما في قصته : «سبعة ضيوف».

وكان اعمق تلك الانطباعات التي تغلغلت فـي نفسه ، وفاضت على قصصه : مأساة مواطنيه المنبوذين ، وبؤس الفلاحين الكادحين ، وشقاء العمال المأجورين ، وسائر الصور المتخلفة عن مساوىء الاقطاع ، والاستغلال ، والاستعباد ، والفوضى الاجتماعية التي تكبدها وطنه العظيم – العريق في حضاراته ، وادبياته ، وفلسفاته – وتركته جسدا ممزق الاوصال ، تخترمه العلل والادواء ، مـا دعا الى انبثاق الحركة القومية التي جاء على اثرها الاستقلال في الخامس عشر من اغسطس ١٩٤٧ ، وتبعته ثورة التجديد والاصلاح الناشبة في الهند حتى الساعة . .

وكانت ان اختمرت في ذهنه رغبة عارمة في الاصلاح والعلاج ، ونشر مساوىء الاستعمار امام الضمير العالمي ، فكان هذا السيل من القصص الطويلة والقصيرة في تلك اللغة الانجليزية الواسعة الانتشار . .

وكان اناند صبيا في الرابعة عشرة حينمـا حدثت في الهند تلك الانتفاضة الوطنية الكبرى بقيادة غاندي وجنوده عام ١٩١٩ وما تلاه . . فاندمج الصبي في تيارها ، وسار وراء غاندي ، وتعرض للجلد والسجن مع الثائرين . . وكان غاندي ونهرو وكبار زعماء الحركة التحريرية قد القوا في السجون – وسجن نهرو تسع مـرات وقضى شاستري – خليفته – في السجن سبع سنوات . .

وهو يقول عن تلك الفترة : « كنت احارب مع رفاقي من اجل حياتي – حاربت من اجل حقي في تقرير مصيري معانيا عللا كثيرة جلبها علي الجلد الحكومي بالسياط ، خلال الاحكام العسكرية في ارمتسار » . .

وهو طيلة تلمذته بجامعة « بنجاب » – ينهل من ذلك التراث الضخم الذي خلفه مواطنوه القدماء من شعر وقصة وفلسفة . . ويرى في الكثير من قصصهم القديم ما يقترب من القصص الحديث في مفهوم جيلنا الحاضر – ففي ملحمتي « الرامايانا » و « المهابهاراتـا » وفي اسفـار « اليوباتيشاد » ، وفي اساطير « جاتاكا » . . وكذلك في اقاصيص «هيتوباديسا» و «يوجافاسستا» . . ومسرحيات الشاعر كاليداسا في القرن الميلادي الخامس ، وفي غيرها مما اشعل خيال ادباء الهند القدماء والمحدثين – هناك تعثر على القصص ذات الخيال القوي ، والحبكة الفنية القريبة الشبه باعمال المعاصرين . .

وتأثر اناند بذلك التراث القديم في صباه كسائر ادباء الهند . . وكان قد ورث عن ابيه تقاليد الديانة الهندوكية ، وعن امه ميلها الى القصص الشعبي ، واغاني الفلاحين . .

وبدا ينظم الشعر – وكان الشعر باكورة كتاباته . . وكان يستلهم الريف شعره حين ينطلـق اليه تشده ذكريات طفولته . . ففي الريف الهندي صور طبيعيـة جميلـة ، واغاني الفلاحين وقصصهم . . وهنـاك كمـا يقول اناند : « يعبر الشعب الهندي عن حياته بنفسه عن طريق رقصاته واغانيه . والرقص لغتنا في التعبير عن حياتنا . ونحـن نرقص عندما نمرح ، ونرقص عندما نتعبد » . .

ولما سئل لماذا بدا حياته الادبية شاعرا يعبر عن خلجات نفسه بالشعر اجاب : « لان الشعر هو اللون الفني الاصيل الذي تتحد فيه الذات بالموضوع ولا يستطيع غير الشعر ان يعبر عن الانفعالات الباطنة الملتهبة التي ترتفع الى مستوى المعركـة . . »

وسألناه لماذا تحول بعد ذلك الى القصة فقـال : « ان الشعر اشبه بمجرى ملتهب ، ولكنه مجرى ذو حدود . اما القصة فاشبه بمجرى ملتهب لا حـدود لـه ولا حواجز ، فينطلق ما شاء له الانطلاق في حرية ورحابة . .

* * *

واشرف ملك راج اناند على العشرين، وما زال يقرا ادب الشعب في لغته وينظم ويكتب بالهندية . . كما كان يقرا ما حوله من قصص التراث القديم ، وما يكتبـه معـاصروه الكبار – مقالات غاندي ، وجريـدة « المستقبـل » التـي اصدرها نهرو ووالده موتى لال نهرو عام ١٩١٩ للدعوة الى

الكفاح الوطني وتحسين حال الفلاحين ـ ومؤلفات تاجور ، وقصص « برم شاند » و « وسارات شاترجى » والاخوة « بانرجى » وغيرهم من الكتاب .. ثم يقرأ ما يترجم من القصص الغربي الحديث وبخاصة روايات تولستوي التي لقيت من مثقفي الهند ترحيبا كبيرا ، فتأثر بها غاندي في تعاليمه ، وتاجور في قصصه ، وبرم شاند في رواياته عن الطبقات الكادحة ، وبانكيم شاترجي في قصصه المليئة بالمواعظ والمبادىء الخلقية ... وكذلك قرا اناند قصص تارجنيف وغوركي وتشيكوف وكانت قد انتشرت ايضا في الهند .. وكان تاجور يكتب القصة الطويلة والقصيرة والمسرحية الى جانب الشعر الذي اشتهر به في العالم ، وراى فيه اناند قاصا يسير على نهج حديث ـ وكان تاجور قد قرا تولستوي وتورجنيف كما قرا لكبار القصصين الفرنسيين ـ ولم تعد القصة لديه مجرد اناشيد تسرد ، ولكنها كما يراها تولستوي تمثل التغيرات الداخلية فيحياة احدى الشخصيات .. وعلى يد تاجور ظهر « البطل » في القصة الهندية في شكل واقعي تحده ابعاد ثلاثة : البداية والوسط والنهاية ..

واما القصاص الهندي برم شاند ( ١٨٨٠ ـ ١٩٣٧ ) فيعده ملك اناند من رواد قصص الخيال في الادب الهندي، وكان يهدف في قصصه الى بعث الثقة في نفوس الفلاحين الذين اذلتهم الحاجة . فرات الحكومة في بعض اقاصيصه الباكرة والمجموعة في كتابه « سوزيفاتان » تحديا للاستعمار البريطاني من الاقطاعيين الذين يساندونه ، فجمعتها واحرقتها بالنار .. غير ان روايته «جودان» ترجمتها فيما بعد هيئة « اليونسكو » الى الانجليزية ..

وكذلك يقدر ملك اناند : الاخوة القصاصين ـ من خلفاء تاجور وهم : تارا شانكر بانرجي وبيهوتي بانرجي ومانك بانرجي .. وكذلك القاص سارات شاندر شاترجي ـ معاصر تاجور . فان لهم قصصا انسانية بارعة تصور الطبقات الكادحة في الهند ، وتعبر عن حاجاتهم واحاسيسهم ..

* * *

وكان ملك راج اناند شابا في العشرين يوم ارتحل الى انجلترا عام١٩٢٥ ليتابع دراستهفي جامعتي لندنوكمبردج .. وهناك نال درجة الدكتوراه في الفلسفة ـ هكذا جرت عادة الطبقة الوسطى في الهند ان ترسل ابناءها الىجامعات انجلتره ومن قبل ارسل تاجور وغاندي ونهرو الى انجلتره لدراسة القانون واصبح الزعيمان الاخيرانمحاميين بينما عاد تاجور للاشتغال بالتعليم والادب ولم يتم دراستههناك.

وفي بلاد الانجليز قضى اناند اربعة اعوام اتقن خلالها اللغة الانجليزية ـ وراى ان يكتب بها قصصه وابحاثه لتخرج الى النطاق العالمي ـ كما فعل تاجور وخلفاؤه من قبل ـ وهناك ايضا الم بالكثير من الادب الانجليزي قديمه وحديثه ، وبالادب العالمي المترجم الى الانجليزية . ولم تفته قراءة زولا وديكنز ودستويوفسكي وتشيكوف .. وراى الفروق بين مدارس القصة ، ومذاهب الفلسفة والنقد .. وكيف تاثر القصص العالمي بالثورة الصناعية التي اجتاحت اوروبا ، وخلع عنه اثواب الخطابة والوعظ ، وتحول الى التحليل النفسي للفرد والجماعة ، واهتم بصميم الحياة الانسانية ، وبالطبقات الكادحة التي تمثل الاغلبية ..

وفي اعماق نفسه كان صوت امه ـ الهند ـ التي استعبدها الاستعمار الاجنبي طويلا بقدر ما استعبدتها التقاليد الموروثة ـ يدوي عاليا ويقلق راحته ويشعره بواجبه نحو هذه الام ـ العضو العريق في الجامعة الانسانية الكبرى ..

وانصهرت في نفس اناند المؤثرات الثلاثة : ـ التراث الهندي القديم ، والثورة الوطنية الحديثة ، والميراث الانساني العالمي ..

وعاد ملك اناند الى وطنه عام ١٩٢٩ ـ وبدا يخرج تلك السلسلة من القصص والمؤلفات .. ويكشف في قصصه عن وجود المخلوقات البشرية العائشة في دروب الهند وحاراتها المظلمة ، وفي قراها ومزارعها النائية .

وتعد رواية « الاجير » ـ كولي ـ التي ظهرت اولا عام ١٩٣٦ ثم اعيد طبعها في لندن عام ١٩٤٥ نموذجا بارعا لقصصه ولاسلوبه وفنه .. وهي واحدة من تلك السلسلة القصصية من الروايات الطويلة المكتوبة باسلوب واقعي حديث ، خال من الزخارف اللفظية والعبارات التقليدية.. واستمد صورها من تجاربه ومشاهداته الذاتية .. ومشاكل بلاده خلال نظامها الطبقي .. او كما يقول القاص الناقد الانجليزي « جاك لندساي » في مؤلفها .

« وان هذه القدرةعلى الخلق الذاتي والمقرونة بحبعميق للحياة الانسانية ، هي الطابع لمؤلفات اناند .. وعندما ترتبط قصصه ـ كما هو الواقع فعلا ـ بحماسة شديدة بالالوان والمشاهد والروائح ، وبحركة الدنيا الواقعة ، كان علينا ان نعترف باستاذيته ! »

وفي رواية « الاجير » هذه ، يستعرض القاص ، المجتمع الطبقي الهندي قبيل الاستقلال ويصور حياة شعب ممزق بين آسيا واوروبا ، وذلك خلال حياة صبي فقير شريد ، اسمه « مونو » ، انتزع من الارض والبيت لتتقاذفهموجات هذا المجتمع .. فما ان يتوفى والده حتى يكفله خاله الموظف الصغير في مصرف ، ويعيش الصبي مع هذا الخال وزوجته، في قرية صغيرة جبلية ، ويرسل الى كتاب القرية ليتعلم

---

(١) ترجم اقصوصة ( ثمن الموزتين ) الى العربية الدكتور عمر مكاوي بجريدة « المساء » بالقاهرة . وترجم « الواجب » المرحوم عباس حافظ بجريدة « الشعب » ١٤ ـ ٦ ـ ١٩٥٦ . وترجم الاستاذ وديع فلسطين اقصوصة طفل بمجلة الاديب ، وحلاق القرية باذاعة الهند .. ونشر الاستاذ فوزي سليمان حديثا مع ملك راج اناند بمجلة « الكاتب » ـ ١٩٦٢ . (٢) لخص الاستاذ مبارك ابراهيم كتاب « هل للهند حضارة معاصرة » بمجلة « صوت الشرق » بالقاهرة ـ عدد يونيه ١٩٦٤ ـ ولخصت « صوت الشرق » مقالة لملك راج اناند بعنوان : « ظهور البطل في القصة الهندية » .

# دمعة على بطل

في ذكرى استشهاد البطل « عبد القادر الحسيني » الـذي سقـط في معركـة القسطل ...

•

بفمي انغام .. قد غرست
في قلبي .. قلب الانسان
انغام حرى ان عزفت
تبكيني .. تبكي كل جنان
ملأى دوما بالاشجان
كزهور الليلك قد غمست
بدم الجرح .. بالاحزان
انغام بفمي قد زرعت
كالحرف .. على شفتي فنان
تتفجر .. من وجداني
كالبركـان
كدم الجرح .. كالاحزان

لم تذبل يوما في قلبي
تتحدى اجداث النسيان
اعزفها دوما مرثية
في ذكرى موت الشجعان
في ذكرى من مات ضحيته
في ارض يسوع .. الانسان
مصلوبا .. كيسوع ثان
بيد الغدر .. والطغيان
بيد سفلى صهيونيته

لا تعرف .. الا العدوان
ملأى حقدا للبشرية
كالشيطان ..!!

أواه .. يا بطل « القسطل »
يا من مات يسوعا .. ثاني
في نيسان ..
ذودا عن شرف الاوطان
انغامي .. انغام الدنيا
ترثيك .. حتى الاغصان
وروابي « القدس » افواه
تهمس في سمع الازمان
حتما ستعود الفرسان
كالطوفان ..!!
تمطر ارضي بالقبلات
تسمعني احلى نغمات
تهديني اكليلا اخضر
مزروع فيه نجمات
احلى نجمات ..
كالبسمات ..

مقبل العيسى
جدة



مبادىء القراءة في الصباح ويرعى الماشية بعد الظهر .. فاذا شب قليلا ارسله خاله ليشتغل خادما عند موظف هندوكي ميسور الحال يعمل في المصرف .. ويرى في ذلك البيت ترفا لم يعهده فيبهره ، ولكن زوجة الموظف تقسو عليه وتعطيه الطعام في يده لا في طبق . واخيرا يفر منها الغلام وينطلق به القطار نحو المجهول ، وفيه يلتقي بشيخ هندي مسلم لم تنجب زوجته أطفالا فيشفق عليه ، ويأخذه معه ليعمل في مصنعه الصغير الذي يشاركه فيه رجل سيء الخلق .. ولا يلبث هذا الشريك ان يسرق مال المصنع ويختفي تاركا الشيخ في حال من الافلاس .. ويضطر « مونو » الى هجر هذا المأوى الرحيم كي يعول نفسه .. وفي طريقه يقابل جماعة تعمل في «سرك» متجول .. ويتحدث مع مدرب الفيلة ، ويعرض عليه ان يصحبه الى « بمباي » ، ويرثي الرجل لحاله ويخفيه في عش الفيل حتى يصل الى بمباي .. وهناك تتلاقفه شوارع المدينة ، ويصادف في الطريق طفلا كادت تدوسه سيارة فيشده وينقذه ، ويكافئه والد الطفل بان يلحقه في المصنع الـذي يشتغل فيه ، ويعاني الاجر القليل وشظف العيش ، ويثور العمال على صاحب المصنع ويحرقون مصنعه ، ويفر الغلام ليصادف في مسيره معركة بين جماعة من الهندوكيين واخرى من المسلمين ، ويجري لتصدمه سيارة تقل سيدة انجليزية ، هي زوجة ضابط بريطاني ، فتأخذه خادما في بيتها ، وليجر لها عربة «الركشا» بالرغم من ضعفه وهزاله .. وتؤدي بالصبي خاتمة المطاف الى المستشفى ليموت بالدرن – ومن حوله الغرباء يولمون الولائم والحياة تسير بين تقاليدها وموروثاتها ..

ومع ذلك فلا تخلو قصص ملك راج اناند من اصداء بهيجة للمحبة والعطف ومن سخريات باسمة للضعف البشري ..

فالرجل كما يبدو في مؤلفه الرائع الذي سماه : « هل للهند حضارة معاصرة ؟ » يمثل جيل الادباء الهنود المحدثين الذين يدينون بالولاء للانسانية كلها الى جانب ولائهم لوطنهم العظيم .

نقولا يوسف
الاسكندرية

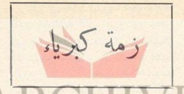
تلكأت قليلا ، تلملم أطراف عباءتها ، وتزيح خصلات شعر معفرة بالعرق والتراب .. ثم عاودت السير كسيرة تجرجر يمناها صغيرها .. ومن يسراها تتدلى شبكة قذرة لا لون لها، تكدرت داخلها بضع خرق بالية وقنينة مملوءة الى نصفها حليبا .. الشارع يكاد يقفر .. واصوات ابواب الدكاكين التي يغلقها اصحابها تشق السكون في فترات متقاربة .. كأنها النحيب ، تعلن انتهاء يوم آخر .ومن هديرها تشعر بالم في راسها المترع بهموم لا حصر لها .. والمثقل بالكدمات .. وفكرت : ليتها تستطيع البكاء .. اذا لخف ما تشعر به من ثقل لعين في راسها .. ولكن انى للعبرات ان تطاوعهــا وقد تحجرت مآقيها ..! الظلمة قاسية .. وحرارة ظالمة تصعد الى راسها تكاد تفجره .. وهبت رياح باردة ارتطمت بقسوة بوجهها المتورم ، فاغمضت عينيها بطريقة لاشعورية تتقيها .. ثم ما لبثت ان شعرت ببعض الانتعاش على الرغم من برودة الجو ..

وعوى كلب .. ثم خرج يركض من احدى المنعطفات متتبعا اثر الشبكة .. باحثا فيها عن لقمة .. ففزع الطفل وتشبث بساقيها يطلب حماية .. فتوقف جسدها للحظات يلتقط الصغير من الارض بصعوبة تأوهت لها .. فقد تعب كل مفصل فيه من اثر اللكمات .. ولما وصلت الى المنعطف الاخر لاح لها عمود نور .. ففكرت ان تستريح هناك لبعض الوقت ..

ثقلت خطواتها، ثم توقفت وشرعت تنزل طفلها فصاحت متأوهة : خل عن كتفي يا اسامة انك تؤلمني .. فنظر اليها الطفل بعينين حائرتين بلهاوتين .. وجلس على الارض فجلست الى جانبه .. تململت قليلا وحركت ذراعيها ، فانزلقت العباءة واستقرت على الكتف .. ثم ارتفعت اصابع يدها اليسرى تحرك ياقة الثوب وتكشف عن كتفها الايمن .. وبحركة عفوية سبق الراس الاصابع يتطلع الى حيث تكشف من الجسد ..

فأحست بوخزات آلمتها .. كانت خيوط الثوب تلتصق بجسدها .. وبدت تحت ضوء النيون الوان شفق .. وخيط رفيع ينز دما ...

الوان شفق .. الوان شفق .. وشعرت بوخزات الم في قلبها .. اشد قسوة من وخزات هذه الكدمات .. وفكرت : لو كان هنا .. آه لو كان هو الذي اعيش الآن تحت جنحه.. اذن لما كان صنع هذه الالوان الا على الورق .. اجل .. لقد احبت هذه الالوان لانه اول من عرفها بها ..لقد كان يرسم بفرشاته الوانا .. خليطا عجيبا من الالوان .. وكانت تنظر وتعجب .. ولما سألته مرة عنها ، قال لها : انها الوان شفق .. انها تذكرني بعينيك .. عيناك فيهما الوان شفق




بقلم سهيلة داود سلمان



.. كان يحلو له كثيرا ان يتطلع الى عيني.. والآن .. ومنذ عشر سنوات لم اسمع احدا يقول لي ان عينيك جميلتان حتى لقد نسيت انني جميلة .. منذ عشر سنوات .. اجل انها تتذكر ذلك اليوم جيداً .. كان يقف هناك في زاوية حجرته ، ورائحة عفنة تفوح من احدى الكوات تختلط برائحة الزيت الذي كان يلطخ كل شيء في الحجرة ، فاينما ادارت عينيها اصطدمت بلون .. وفجأة تنبهت الى انه يطيل التحديق في عينيها حتى ليكاد يلتهمها. . فصاحت فيه وقلبها يشتد خفقانا : لماذا تحدق في هكذا .. انك تخيفني .. وعندها




زادت نظراته عمقا وهو يقول بصوت يكاد لا يسمع : ان النظر اليك لا يشبع .. آه لو اطبقت اجفاني عليك .. اجل كانت تخافه حين ينظر اليها .. تشعر كما لو انها تغوص في بحر لا قرار له .. وتتذكر أنها اجابته يومها وهي مازحة خجلة : الآن ادركت لم اجفانك دائمة الاحمرار .. لعلك اعتدت اطباقها على فتيات كثيرات قبلي ..!

وافتر ثغرها عن ابتسامة عريضة .. لقد غاصت حتى الاعماق في ذكريات حبيبة .. حتى انها تحسست وجوده كاملا امامها .. ولم تدرك انها في ذكريات فحسب الا حين احست بالم في وجنتيها المتنفختين سببه انبساطات الإبتسام ... وبكى اسامة، ففتشت عن قنينة الحليب. .ومسحت حلمتها القذرة بطرف ثوبها ، ثم دستها في فمه .. فوضع الطفل راسه على فخذها ... وتابعت: لقدكانت اجفانه محتقنة دائما .. الآن تدرك لماذا .. حين سألته مرة قال لها ان خليط الالوان يؤثر على عينيه ولكنه كان لا يفهم .. او لعله كان يكذب .. فهذا سببه الجدع والحرمان .. انه يكاد لا يأكل شيئا هذا هو السبب الذي اتعب عينيه لا خليط الالوان .. آه كم كان يقاسي .. ليتني استطعت ان اشبع حرمانه .. ان اجوع ليشبع.. ان اسهر الدهر لينام .. ولكن هو الذي كان يمنيني بذلك .. لقد قضى سنتين يفتش عن عمل وكان يرهقه ان يعود خائباً .. وحين تسأله عما تم يقول لها وهو يغتصب ابتسامة بجهد ليجعلها تبدو متفائلة : سوف اجد العمل وحين اجده .. ستكونين معي .. وسوف لن نفترق ابدا .. سنكون معا لاننا سنتزوج .. وفي نفس اليوم عندئذ لا اريد منك سوى ان توفري لي طعاما دافئا لدى عودتي وقت الظهيرة فمنذ مدة طويلة وانا لم اتشهى شيئا سوى وجبة ساخنة .. اما انت .. فساغرق جسدك بحرائر مختلفة الوانها .. ومع كل ثوب سارسم لك صورة تختلف عن

الاخرى .. ايرضيك هذا ؟! ايرضيك ام تريدين المزيد ..؟ قولي .. قولي ماذا تريدين .. ماذا تشهيت ..! انا تشهيت الطعام الساخن .. فماذا تشهيت انت ..؟ ويركع الى جانبها يستعطفها متوسلا كالاطفال ان تجيب .. سنتان وهو ينتظر العمل .. سنتان والعمل يهرب منه .. سنتان كانت كافية لان يبصق فيهما آخر قطرة دم بقيت في رئتيه .. الشهران الاخيران منهما قضاهما يحلم بالدواء .. قال لها مرة وهو يتلقى الماوالسعال يتسابق مع الكلمات الخارجة من بين شفتيه واهية لاهثة : اريد دواءيوقف السعال ولو لساعة فقط استطيع فيها ان استمع اليك بهدوء واستمتع بالنظر الى عينيك .. وقال لها مرة اخرى وكان في حالة يأس وقد ترقرقت الدموع في عينيه الغائرتين في محجريهما : — هل تعلمين يا آمنة ..ان في اماكن كثيرة من هذه الارض .. هناك حيث للانسان كرامة في بلده .. يعطى الدواء مجانا للمريض.؟ لذا فانك لا تجدين هناك من ينفق كالحيوان .. بل قلما تجدين من يموت من المرض .. انهم يموتون من الشيخوخة .. ويموتون بحادث .. اما ان يبصق رئتيه فهذا ليس له وجود.. فحيث وجد دواء يباع وجد المرض ..

لقد عاش عمره القصير وهو يقاسي الجوع والحرمان.. فانعكس ذلك في ميله الى ان يضع الوانا شتى على الورق .. فكانت التسلية الوحيدة التي يستطيع فيها اشباع رغباته.. وان يستطيع ان يحققها .. لذا فانه كان يأكل القليل .. القليل ليوفر الباقي لانبوبة زيت يغمس فيها فرشاته .. واذا ما جمع الثمن .. هرع ماشيا مسافات طويلة حتىيصل الى ستوديو الحكيم القابع في بطن شارع الرشيد .. فيمد يده بالنقود صابا اياها فئات قليلة في يد البائع بانتصار وابتسامة ذات معنى تغطي ملامحه وهو ينتقي اللون الذي يريد .. كم لعن صاحب الحكيم هذا لانه لم يختر له مكانا اقرب اليه .. في باب المعظم مثلا .. اذا لوفر عليه لهاث ساعة اخرى يقضيها في الاياب الى حيث يسكن .. في مرآب صغير رطب ملتصق باحدى البنايات الكبيرة في شارع الحريري .. حيث كان يستعمل كمخزن للحطب في الشتاء قبل ان يؤجرها ... كان هذا قبل عشر سنوات .. ومنذ عشر سنوات فقدت العين التي تحميها ..وتنهدت تنهدات متقطعة .. ونظرت حولها.. فاذا هي في العراء واذا ( اسامة ) يغط في نومه على الاديم .. وقنينة الحليب تكاد تسقط من فيه .. وفكرت : سوف تذهب كالعادة عند زوجة ابيها .. فهي الشيء الوحيد الباقي الذي يربطها بالماضي علىقسوته .. على اي حال فسوف تجد عندها الاذن الصاغية التي تفرغ فيها بعض الهم عن صدرها ، فتشكو لها وتشكو تلكبدورها حالها وحال اشباع خمسة افواه يتامى .. انجبهم الوالد بعد الستين ثم قضى يوما ملعونا كاي حيوان وتركهم للضياع .. ولزريبة قذرة يلجاون اليها متى ما حل الظلام .. انهما حين تجلسان معا تكونان الصوت والصدى ..

وحركت يديها تلملم حاجياتها .. فشعرت بالم حاد وبحرقة في اسفل الرقبة فامتدت اصابعها تتحسس موضع الالم .. كأنها تهدهده .. فاحست لزبعة ونظرت فرات شيئا يلتمع تحت ضوء النيون .. وفكرت: القذر .. ان قطرة من دمي لهي اثمن من وجوده ، لو كان له وجود .. وفركت راحتيها ببعضهما ثم امرتها فوق فخذها .. ثم ما لبثت انتنفست بعمق .. وشعرت ببعض الراحة ، وكان عبثا ازيل عن كاهلها .. حين مر خاطر في ذهنها وفكرت : على اي حالفان التصاق خيوط الثوب بلحمي لهو اقل قسوة من التصاق جثته العفنة بلحمي .. ودمائي تنز .. خير من ان اتقيأ امعائي فوق فوهة بالوعة نتنة بعد كل ليلة اغتصاب ...

واصلت السير .. فوق كتفها الايمن لحم طري دافيء .. وفي يسراها تتدلى الشبكة التي لا لون لها .. وفكرت : سوف اطرق الباب .. وسوف تخرج راسها من الكوة .. وسوف تفتح .. ثم تفسح لي طريقا وهي تفرك عينيها كالعادة دون ان تسأل شيئا .. فقد اعتادت انتراني سواء اكانت الليالي حارة .. ام باردة .. دبقة .. ام قارسة ..!

بعد يومين وهي تنشر الغسيلامام الدار .. رأته يقبل من بعيد ... يتدحرج لاهثا .. يتسابق كرشه مع خطوات ساقيه .. وفكرت : تف .. جيفة نتنة .. وادارت ظهرها تجتاز الباب .. ثم فجأة تذكرت شيئا .. فعادت وتطلعت .. انه حسن .. ابنها البكر .. ومن خلفه اخوه الاصغر .. ها هما يقتربان منها .. زمةكبرياء على شفتي الكبير ..ونظرة استعطاف في عيني الصغير .. انها مشدودة اليهم دون اختيارها .. هؤلاء الصبيان الثلاثة .. كم قصموا ظهرها ..!

وتقرب منها ، ينفخ اشداقه .. فتمنت لو ان موسى حادة تبقر هذه البطن وتدلق امعاءها الشرهة ... وفكرت : يهينني .. يسلخ جلدي.. يعفر كرامتي .. ثم ياتي ليقول : عودي .. هكذا .. عودي .. حتى دون قبلة كاذبة لقد تكرر هذا .. لا .. لن اعود.. لن اذهب معه ثانية.. القذر .. قدوة حسنة لاولاده .. لن اعود لاني سانتحر .. ساضعحدا لهذه الروح الشقية .. وتوقف تفكيرها للحظات .. وتبلد حسها .. ثم عاودت : ان اماتت نفسها فسوف تتوارى جثة تحت التراب .. كما توارت امها من قبل .. وزوجة عمها .. وجارتها .. وكلهن .. كلهن سواء .. مهما اختلفن .. جميلات ام قبيحات .. دافئات ام باردات .. كلهن خلقن هكذا ، للهوان ..! وفجأة

# بائع العرقسوس

***

الف الاذى وضراوة الفقر ... في عيشه المشبوب بالمر
ومضى وراء الرزق مندفعا ... كالنسر دون فريسة يجري
تلقاه مبتسما ومن عجب ... أشجانه ملء الحشا تفري
ما زل من وقر له قدم ... او ناء ظهر منه عن وقر
شفتاه باسمتان ما عصفت ... اشجانه بجوائح الجمر
الف الاذى والنفس ما الفت ... كان المحبب دون ما تدري

جشمت على الكتفين قربته ... كلواعج الادواء في الصدر
ورات على كتفيه بغيتها ... من مركب دثر ومن حجر
وكأنما ذر الدجى قتما ... من دونها ينداح من غمر
او انها اتشحت مؤزرة ... بجناح ليل مسبل الستر
علقت بأسيار لتمنعها ... من عرة في المسلك الوعر
اسيارها الآلام عالقة ... دون الضلوع بمخلب النسر

طاساته بيديه هازجة ... من نشوة عرضت ومن بشر
بغمت باهزاج وما فغرت ... ثغرا وما افتقرت الى ثغر
ومضت مزغردة ومن عجب ... اروت واورت دون ما تدري
سلبت شعاع الشمس ريقه ... وبهاءه باشعة صفر
وتجلببت بالنور ادرعة ... شفافة كالكوكب الدري
او انها بيمينه اكر ... وضاءة من مشعل الفجر

جرع يدار بها مشعشعة ... كوميض برق في دجى يسري
عبقت بأعراف لها وزكت ... جرعاتها كخرافة الخمر
تشفي جوى ولظى مؤججة ... بالري آونة وبالعطر
اني لارثي حظ بائعها ... من عيشه المشبوب بالمر
يروي حزازات الصدى حدبا ... أيامه بالمبلغ النذر
والداء لا ينفك لاعجه ... ينداح في مد وفي جزر

دمشق — عدنان مردم بك

مر خاطر في نفسها .. فتحسست آلامها : ـ لا .. لا .. انه ما اهانني ابدا .. لقد اهان نفسه انه يعاني ضعفا .. والا لما ضربني .. لو كانت عيناه تدفئني لما ضربني .. لو كانت اصابعه تجيد العزف على اوتاري .. لما ضربني .. لو كانت اجفانه قادرة على ان تطبق علي لما ضربني .. انه يعاني ولهذا يفعل ... ساعود ..

ساعود .. ولاجل اطفالي ساحيا معه تحت سقف واحد .. لكنه لن يكون شيئا بالنسبة لي .. وكما ساحيا مليئة بالكبرياء .. فسوف يموت كل يوم ميتة .. فوجودي سيكشف له عن ضحالة مستنقعة .. وسيغرق كل يوم في اعماق ابحاري ...!

وتطلعت الى ولديها .. نظرة استعطاف في عيني الصغير ..وزمة كبرياء على شفتي الكبير .. فاقبلت نحوهما تبتسم .. احتضنت الصغير .. وطبعت قبلة على شفتي الكبير .. ثم شمخت براسها .. وزمت شفتيها كما يفعل حسن .. والقت نظرة رثاء كبيرة على الشيء الضخم القابع الى جانبها ينتظر ... واجتازت عتبة البيت .

بغداد — سهيلة داود سلمان

# سيرة دكتور جونسون

بقلم جيمس بوزويل — ترجمة مبارك ابراهيم

* * *

هو صموئيل جونسون ( ١٧٠٩ — ١٧٨٤ ) المعروف باسم دكتور جونسون . اللغوي الانجليزي وصاحب المعجم المشهور . والملقب بلقب « الحاكم بامره في الادب » ..

و « جيمس بوزويل » هو كاتب من كتاب اليوميات . وهو مؤلف سيرة دكتور جونسون . وقد خلد كل منهما صاحبه . فمن قال دكتور جونسون خطر بباله جيمس بوزويل . ومن خطر بباله بوزويل تذكر — بحكم التداعي — دكتور جونسون ..

* * *

ونحن ملمون في هذا المقال بهذه السيرة المامة نرجو ان يكون فيها مقنع للقارىء المتعجل . وان تكون مبعثا للشوق عند طالب الاستزادة .

تم التعارف بين « بوزويل » وصاحبه عام ١٧٦٣ وظل « بوزويل » واحدا وعشرين عاما الصديق المخلص . والوفي الحميم للرجل الحكيم العالم . وكان يضمر في نفسه ان يكتب سيرة صاحبه .

وكان جونسون على علم بما كان يضمره « بوزويل » ..

وقد اخذ « بوزويل » على نفسه موثقا ان يكون في تصويره لصاحبه صادقا كل الصدق حتى لقد يؤثر عنه انه قال : لن اخلق من ( النمر ) الذي سوف اصوره ( قطا ) لكي يرضى عني الراضون ..

وكان الخلصاء من اصحاب ( جونسون ) غير راضين عن قيام التحالف بينه وبين « بوزويل » وتساءل احدهم فقال: من هذا الوغد الايقوسي الذي يرتمي على قدمي جونسون؟

فاجابه جولدسمث : انه ليس وغدا .. ولكنه قدم غبي ليس غير ..!

وقد وصف « بوزويل » بصراحته المعهودة اول لقاء تم بينه وبين جونسون فقال : —

واخيرا تم اللقاء .. يوم جاء « جونسون » الى متجر ( مستر دافيز ) . وقد عرفته من صورة كان قد رسمها له ( سير جوشوا وينولدز ) بعد صدور معجمه .. وذكر « مستر دافيز » له اسمي . وقدمني اليه فتولاني الاضطراب . وتذكرت سوء رايه في بني قومي الايقوسيين فقلت لمستر دافيز : لا تقل له من اين جئت انا .. فاجابني — في تخابث — : لن اقول له الا انك قد جئت من اسكتلنده ..! فلم ار انا بدا من ان اقول : يا مستر جونسون : لقد جئت انا حقا من اسكتلنده . ولكن ليس لي في هذا الامر حيلة ! ولم اكن اريد بقولي هذا الحط من قدر بلدي . ولكني اردت ان امزح . تهدئة واسترضاء .. ولكني لم اظفر بما كنت ارجو فقد امسك بخناق هذا التعبير بما اوتي من قوة البديهة وسرعة الخاطر وقال : هذا القول — كما يتبين لي دائما — يا سيدي هو ما تقوله الكثرة الكاثرة من بني قومك . فهم لا يفتأون يلوكون — في غير ملل — عبارة : ليس لنا في هذا الامر حيلة ..!

وبعد فان الناس قد اصطلحوا على تسميته الفترة التي تتوسط القرن الثامن عشر بعصر « جونسون » ولم يكن الدافع لهذه التسمية ان « جونسون » كان اعظم رجال الادب في زمانه . بل كان الدافع هو ما اوتي هذا الرجل من شخصية قوية وسلطان لا حد له ..

وقد اطلق عليه « لورد شسترفيلد » لقب طاغية الادب وقال انه استحق هذا اللقب ببراعته في الحديث اكثر من براعته في الادب فقد كان حديثه يتميز بالفطنة والحصافة وبقوة الادراك وفرط المعرفة . ولقد كان نصيبه في هذه البراعات من اوفى الانصبة .. ولقد طالما كان يخطىء . ولكنه ما كان في يوم من الايام خوارا ضعيفا ..

انه كان يتحدث وهدفه ان يحرز الغلبة والنصر .. وكان اذا اجهز على واحد من اعدائه واتم قتله . تأهب لالحاق الهزيمة بآخر . وكان اذا فضح ضلالة من الضلالات وكشف عنها الغطاء اعد نفسه ليلحق بها اخوات لها ..

وقد حسب « جونسون » ان « لورد شسترفيلد » قد حط من قدره بعبارته تلك . ومن ثم قام العراك بينهما . ذلك العراك الذي يصفه « بوزويل » فيما يلي :

قيل ان اسباب نشوب العراك ان اللورد قد استبقى « جونسون » في غرفة الانتظار وقتا اطول مما يجب . ولم يكن جليس اللورد الا رجلا من المغمورين .. ولكن هذه الحكاية لم تكن تمت الى الحقيقة بسبب .. انما نشب العراك لان اللورد قد مرد على اهماله لجونسون ذلك لانه لما اوشك المعجم على الظهور — وكان اللورد يمني نفسه بان « جونسون » سوف يتقدم باهدائه اليه — حاول اللورد ان يسترضي المؤلف فكتب مقالين في صحيفة « الورلد » اشاد فيهما بقدر المعجم .. ومما يجب تقريره ان المقالين قد كانا ينطويان على آيات من الثناء قد احسن اختيارها . كما اجيدت صياغتها . حتى لقد كان جائزا — لو لم يكن جونسون قد اسيء اليه من قبل — ان يبتهج لهذا الثناء الابتهاج كله . فالمديح كان يلذه ويدخل السرور على نفسه دائما .. وفوق ذلك فان المديح اذا جاء من رجل له مقامه الاجتماعي المرموق . وله براعاته المعترف بها فان رضى النفس لدى الممدوح يكون اوفى واوفر ..

وقد جاء في كلام اللورد : اني لارى ان الجمهور بصفة عامة وان افراد جمهورية الادب بصفة خاصة ممتنون كل الامتنان لمستر « جونسون » ذلك لانه قد شمر عن ساعد الجد وانجز مثل هذا العمل العظيم الذين هم في اشد الحاجة اليه ..

ومن المسلم به ان الكمال لا يرجى من الانسان .. ولكن

اذا جاز لنا ان نتخذ مقياسا للحكم ما سبق نشره من مؤلفات « جونسون » فانه يحق لنا ان نؤمن بأن هذا المعجم سوف يكون اقرب الى ناحية الكمال بقدر ما في قدرة انسان ان يفعل . وآية ذلك ما نشره جونسون من قبل من مضمون هذا المعجم . ولذلك فانا اوصي كل من ينتوي شراء المعجم ان يتصفح ما سبق نشره منه ..

وهذه الوصية اللطيفة المهذبة قد فشلت في اداء ما قصد اليه بها . فقد ظن جونسون ان الامر كله لم يعد ان يكون كلاما فارغا وقولا مكذوبا ..

وقد هزيء جونسون بالكلمات المعسولة . بل لقد ابدى حنقه وسخطه على ان اللورد قد خطر بباله ان يكون في مقدوره ان يخدعه بهذه الخدعة ..

ويقول « بوزويل » : — وقد شرح لي « جونسون » هذه القضية فقال : ان اللورد بعد ان اشاد بذكري مرارا ظل يتجاهلني اعواما طويلة . فلما اوشك المعجم ان يخرج الى الوجود اخذ اللورد يكتب كلاما ملتويا تغشيه عبارات مصقولة مهذبة .. وقد شئت انا ان اريه اني لم اعبأ بما قال او كتب . وان ما بيني وبينه قد انقضى ..

وفيما يلي عبارات من الخطاب الذي بعث به جونسون الى اللورد :

سيدي اللورد ،

لقد انبأني اخيرا صاحب جريدة « الورلد » ان مقالين فيهما ثناء على معجمي قد جرى بهما قلمك .. وانه لتشريف لي ان انال هذا التميز . ذلك لاني لم اتعود الا قليلا ان اتلقى امارات التكريم من العظماء . وذلك لاني لست اعرف كيف اتلقى هذا التكريم . ولا كيف ابدي امتناني ..

ويوم لقيت منك بعض التشجيع — يوم زرتك لاول مرة — ملك علي امري سحر حديثك . شأني في ذلك شأن بني الدنيا جميعا .. وقد مرت سنوات سبع على تلك الايام التي كنت اقضيها في غرف الانتظار في بيتك . او كنت اصد فيها عن بابك ..

ولقد ظللت طوال تلك الليالي اقتحم الاشواك واتخطى العقاب والصعاب .. وقد بلغت آخر الامر مرحلة النشر دون ان القى عونا من احد . او اتلقى كلمة من كلمات التشجيع . او استمتع بابتسامة تنفرج عنها شفتا اخ محب ..

وانا ما كنت اتوقع شيئاً من هذه الرعاية ذلك لاني لم اظفر « من قبل برعاية حام من الحماة » ..

ان الراعي عند الشاعر « فيرجيل » قد تعرف آخر الامر الى الحب فألفاه من سكان الجلامد . وقطان الصخور ..

وبعد فالا يعد حاميا من الحماة يا سيدي «اللورد» ذلك الذي يغض الطرف عن رجل يكافح وتتقاذفه الامواج حتى اذا بلغ الشاطىء اغدق عليه هذا الحامي صنوف المعونة والوان المدد ؟

ان اللفتة التي تفضلت بتوجيهها الى عملي كانت تكون مستحبة لو كانت قد جاءت في اوانها . ولكنها قد تأخر بها الزمان حتى اصبحت لا اعنى بها . بل حتى اصبحت غير قادر على الاستمتاع بحلاوتها .. انها جاءت بعد ان اصبحت علما مشهورا . وبعد ان بت في غير حاجة اليها ..

ولما كنت قد قمت باعباء عملي الى ابعد حد دون معونة من عالم متفضل فلن احس بخيبة الامل . ذلك لاني قد افقت منذ زمن طويل من اضغاث رؤيا الامل ..!

وفي الفقرة التالية من خاتمة السيرة يمدنا « بوزويل » بلمحة عن « جونسون » وطريقة عيشه فيقول :

ان طريقة عيشه طوال ايام معرفتي به كانت تتسم بالرتابة الى حد ما . فقد كنت ازوره حوالى الظهر من كل يوم . وكثيرا ما كنت القاه لا يزال في فراشه او عاكفا على قدح من الشاي وهو الشراب الذي كان يكثر من تناوله ..

وكان من عادته ان يستقبل زوار الصباح . وهم — في الغالب — من الادباء . واحيانا كان يزينهم سرب من السيدات المثقفات .. واني لاذكر بصفة خاصة احداهن . وهي سيدة فرنسية . ذكية . مهندمة ..

وكان « جونسون » يبدو لي وكأنه ممن يتنزل عليهم الوحي . وان من حق كل احد ان يزوره وأن يسأله الراي والمشورة .. ولا شك ان زواره كانوا يلقون في الالتقاء به احسن المكافأة وخير الجزاء ..

و « جونسون » كان يقضي ساعات الصباح في التحدث والخطابة ثم يغدو الى حانة من الحانات فيتناول غداءه . ويبقى هناك الى وقت متأخر ثم يتناول الشاي عند واحد من اصحابه . ويظل عنده وقتاً طويلا . ولكنه قلما يتناول عشاءه هناك ..

وانه ليخيل الي انه كان لا يقرأ ولا يكتب الا في ساعات الليل . ذلك لاني لا اذكر انه ابى يوما من الايام ان يذهب في صحبتي الى احدى الحانات ..

و « جونسون » طالما كان يعطي كل ما في جيبه من نقود فضية للفقراء الذين كانوا يقعدون له على الطريق فيما بين بيته والحانة التي يتناول فيها غداءه ..

وكان يقضي ساعات طويلة وهو يذرع ارض الشوارع والطرقات .. وكان يقول انه لم يسرقه السراق ابدا ذلك لان اللصوص كانوا يعرفون انه لا يملك الا قليلا من المال . ولانه ما كانت تبدو عليه مظاهر الثراء ...

وكان جونسون ترتعد فرائصه اذا تذكر الموت او تذكر ما بعد الموت ..!

وكان يقول : اي رجل قد اوتي رجاحة العقل لا ترتعد فرائصه اذا خطر بباله في صورة جدية انه سوف يغادر كل ما عرف في حياته وانه سوف يغدو الى حالة من حالات الوجود لا يعرف عنها شيئا ؟

ولكن خوفه هذا كان منشؤه الاستغراق في التأمل كما كان مبعثه التفكير الفلسفي والديني .. اما شجاعته فكانت شجاعة طبيعية ..

ان جونسون كان يخشى الموت ولكنه ما كان يخشى شيئا سواه . بل ما كان يخشى حتى ما يؤدي الى الموت ..

## هرب

أأولي تائها في السبل … خلف هذا البحر اطوي املي
هاربا من ناظريها ناسيا … لون عينيها الجميل المخملي
ناقما في فورة الجرح على … كل شيء كافرا بالمثل
بتسامي ربة صفت لها … لهف القلب حكايا غزل
تاركا للنار حبا خالدا … يطلع الاقمار في مستقبلي

سوف امضي في دروبي اغتذي … بجوى يغلي لظى في مرجلي
ذابحا حبي لصوت هامس … لفوى الشعر التريك المهمل
لشذا برعمة مخبوءة … في الفلالات ... لشمل الانمل
ومسيئا لزغاليلي التي … تتهافى لاختطاف القبل
وصداقات كاضواء لنا … في دجى هذا الطريق الموحل

ايها الغاضب لا تذبح على … منجل الحقد طريء السنبل
ودع اليأس ففي غرستنا … برعم للحب لم يكتمل
وتمهل انت لا تقوى على … دمعة في هدبها المنسبل
ان فينوس ستبكي اسفا … لغياب الشاعر المرتحل
وتعيش العمر رؤيا ندم … غائم في جفنها المكتحل
فاغفر الذنب ايا شاعرها … وافتح القلب لحب اجمل
انت في الارض ربيع دائم … ومراح الامل المترسل
وهي انثى ذات راس متعب … يتشهى دفء صدر الرجل
فاحتضنها ونلمس جبهة … حجبتها رائعات الخصل
انتما للحب قيثار على … مثله الاجيال لم تشتمل

فؤاد الخشن



ويختتم « بوزويل » سيرة جونسون بوصف خصائص الرجل فيقول :

ان روحه لم تعرف الخنوع ابدا. ويؤثر عنه انه قال وهو على فراش موته : ـ اني سوف اغلب وسوف اصاب بالهزيمة . ولكني لن اسلم ابدا ..

ويقول بوزويل : ـ كان جونسون رجلا قوي البنية . وثيق التركيب . عظيم الخلق . وكنت اذا نظرت اليه فكأنك تنظر الى تمثال قديم ..

اما قوة الابصار عنده فقد كان لا يبصر الا بعين واحدة . اما مزاجه فكان مزاجا سوداويا كئيبا .. وكان اذا مشى فكأنه كان يرسف في القيود . وكان اذا امتطى صهوة جواده عجز عن توجيه الحصان الوجهة التي يريدها فكان يبدو للرائي عندئذ وكأنه في منطاد من المناطيد ..

وهو بهذا التكوين الذي وصفت وبتلك العادات التي اعتادها في الحياة فأن بلوغه الخامسة والسبعين يعد دليلا على قوة حيوية موروثة . صانت هذا البناء من التهدم . وابقت على هذا الهيكل من الدمار ..

وكان « جونسون » يميل الى تصديق الخرافات ولكن ليس الى حد الغرارة والغفلة .. ومن مميزاته وآيات تفوقه على غيره من العلماء انه كان يستمتع بما يمكن ان يسمى بفن التفكير او بفن استعماله كعقله . وبقوة فائقة لا تنفد يستطيع بها ان يستخلص المادة النافعة من كل ما يعرف وان يحسن عرضها في صورة قوية واضحة ..

اما مبادئه الخلقية فقد كانت ذات صبغة عملية ذلك لانه كان يستخلصها من معرفة صحيحة بالطبيعة الانسانية ..

والمبادىء التي كان يوصي بالاستمساك بها كانت تحمل في طياتها وسائل الاقناع ذلك لانها كانت تقوم على دعامات من حسن التمييز وقوة الادراك . وذلك ايضا لانها كانت وليدة استقراء دقيق لاطوار الحياة الحقة ..

اما عقله فقد كان حافلا بالصور . حتى لقد كان يصح ان يكون شاعرا في جميع حالاته .. اما في حديثه فقد عود نفسه الدقة في التعبير حتى في احاديثه العادية . وكان يتأنق في انتقاء كلماته . وكان يجاهر بحديثه ولا يخافت به .. وكان يتعمد ان ينطق كلماته في رفق . وعلى مهل ...

القاهرة … مبارك ابراهيم



محمد سليم رشدان

# في مسالك الدروب


بقلم محمد سليم رشدان

المحاضر في كلية الاداب بالجامعة الاردنية


## اناشيد للغناء

كان صباحا ..

لو تلفت اتبينه في ما خلفته ورائي من اصباح ، لاجهدني طول التفاتي قبل ان اصل اليه ، لفرط ما بعد المدى بيني وبينه . وكنا جلوسا في واحدة من حجرات المدرسة التجهيزية في السلط ، ودخل علينا فتى تغلب عليه لكنة ابناء النبطية من جبل عامل في لبنان . وانبأنا انه شاعر ، فما زلنا نحاوره ونداوره ، حتى انشدنا من شعره بعد ان رفعت بيننا وبينه الحجب ، وشملنا من عطفه الابوي ما حببه الينا وقربنا منه .

ودار الزمن في فلكه ، فاذا هو يصدر ديوان (الحومانيات) واذا فيه الكثير من وحي الطبيعة الفاتنة في (وادي السلط) ، وما يحيط به من هضاب خضر ، وسفوح ظليلة .

وينقضي من الزمن بعد ذلك حين ، فاذا بي القاه في مدينة القدس ، واهرع الى لقائه ، وكنت فيها مقيما آنذاك ، واحتفل بعودته من العالم الجديد ، وادعو اليه نخبة من الفئة الواعية من ابناء بيت المقدس في ( روز ماري ) ، ويحدثنا عن قصة حواء الفاتنة ، التي لقيها في رحلته ، ويكشف لنا عما احدثته في قلبه من جراحات ، وذلك بشعر فياض بالشعور ، ما أبعد الفرق بينه وبين (الحومانيات) .

ويعود بعد ذلك بسنوات الى القدس ، فأسعى الى لقائه بولاء التلميذ واعجاب المتادب ، واجمع صفوة من رجال الفكر والقلم في ( البيكادلي ) ، فاذا هو ينشدنا هذه المرة صورا من شعره السياسي ، يتحدث فيها عما كان قائما آنذاك في القطرين العربيين سوريا والعراق ، ويدهش من استمعوا اليه في تلك الامسية ، ببراعة انتشاره ، وروعة تصويره ، وسلاسة الفاظه ، وحسن الاختيار في قوافيه . .

وانقطعت بعد ذلك اخباره عني ، وان لم تنقطع آثاره التي وجدت الكثير منها في : ( كربلاء ) و (النجف الاشرف) و (بغداد) و (بيروت) و (دمشق) . .

وظللت اقرا له ، واعجب بكل ما اقرا ، حتى وافاني منذ ايام نبأ موته ، فاحزنني ذلك ، واثار في نفسي لواعج ، وايقظ في اعماق الفؤاد حنينا من الماضي ، وذكرني بنهاية المطاف ، واليوم الموعود ، الذي لا بد ان يلقي فيه ابناءالحياة عصار رحلتهم الجاهدة ، ويخلصون مما علق بهم من عناء طريقهم الطويل . .

اجل . لقد مات الرجل ، بعد أن خلف للادب العربي آثارا سوف تعيش طويلا ، وتقراها الاجيال المتلاحقة ، لانها جديرة بان تقرا ، ولان من يتذوقون الادب على حقيقته ، سوف يجدون فيها زادا قيما ، يحلق بهم الى معارج بعيدة سامية ، وينقلهم الى آفاق من الانسانية المتعالية عنالصغائر والترهات . وسوف يجدون فيها اناشيد ، تمتلىء بها الافواه غناء ، وتطرب لها الاسماع والقلوب . .

ذلك هو استاذي ( محمد علي الحوماني ) ، الشاعر الاديب الباحث الرحالة ، الذي مضى في ركب الخالدين . .

## ترضين .. فيما ارتضى ؟!

ما اكثر ما نشاهده في هذه الحياة من صور ، وما اكثر ما نشاهده في هذه الصور من خروج على المألوف ، لا يطمئن اليه المنطق ، ولذا فان من يلاحظون ذلك ، يبادرون الى نقد هذا المعوج الذي وقعت عليه ابصارهم ، وهم يشعرون انهم بذلك يؤدون واجبا ، لا بد لهم من ادائه .

وفي حدود ما سلف ، رايتني يوما امام واحد من هذه المشاهد اقول :

| | |
|---|---|
| ابصرته يمشي .. على رسه | لا (هيذبى) تبدو .. ولا ( خيزلى)! |
| يكاد مما فاض من كبره | ينشق .. او يدني له معضلا |
| جاء بتيه .. لو تبينته | الفيته مبتكرا .. اولا !! |
| ولو تطاولت الى انفه .. | لخلته في شاهق مرسلا .. |

*

| | |
|---|---|
| فقلت للنفس .. وما جاهرت | فيما اناجيها .. ولن تفعلا ! |
| ترضين يا نفسي فيما ارتضى ؟! | فجاوبت مغضبة : ويك .. لا !! |

## لصاحبنا .. سمير شيخاني

قال لي صاحبي ، ونحن في طريقنا الى ( الاتوماتيك ) القائم وسط بيروت : هل سمعت بهذا الاسم .. « كتاب الانس » ؟!

قلت : لا . لم اسمع به ، لمن هذا الكتاب ؟ ومن مؤلفه ؟! ومن اي عصر هو بين عصورنا الغابرة ؟

وضحك صاحبي ، فظننته يتهمني بالتفريط ان يفوتني علم ما علم ، وتغيب عني معرفة كتاب « الانس » ، فعدت الى الذاكرة استعرض ما فيها من اسماء . انه قريب الشبه من كتاب « الاسحار والاحاديث » في تسميته ، أتراه لابي حيان التوحيدي اذن ؟! وكدت اكشف له عما وصلت اليه من تخمين ، لولا انه سبقني الى القول :

انه كتاب اخرجته المطبعة في الامس القريب ، وهو لصاحبنا (سمير شيخاني) ، فالى اين ابعدت في تقديرك ؟ أتراك ظننته لاحد المؤلفين القدامى ؟!

انه الكتاب الخامس والعشرون للمؤلف ، ومن اجل ذلك تداعى اصدقاؤه الى تكريمه ، فاقاموا له دعوة في فندق ( فينيسيا ) اشترك بها معارفه من الادباء ورجال القلم ، ولا بد ان تكون نسختك في طريقها اليك في الاردن ، ما دمت لم تطلع عليه بعد ..

وشوقني حديث صاحبي الى ان ابادر الى حيازة الكتاب في بيروت ، فاذا هو جهد ادبي قيم ، جمع فيه صاحبه براعة الاستشهاد الى دقة الاستنتاج وصواب المقارنة ، مضافا الى ذلك الاسلوب الرشيق، الذي يتكىء بكلا مرفقيه، على تراثنا العربي الزاخر بكل طريف مدهش ..

وخرجت من الكتاب ، بعد ان طال ما استوقفني فيه من حكمة وموعظة ، خرجت منه الى ان اقول : ان مثل هذا الجهد القيم جدير بان يكرمه الادباء ورجال القلم ليس في بيروت وحدها ..

فمرحبا بكتاب « الانس » في مكتبتنا العربية ..

وحيا الله مؤلفه ، الذي بلغ يوبيله الفضي ، فبلغ بذلك وهو فتى ، مراتب الشيوخ ..

### الملحمة اللبنانية

كانت امسية في زحلة ، وما اجمل الاماسي هناك بين احضان الطبيعة الضاحكة ، وجمالها الفاتن الخلاب . ودعينا في هذه الامسية الى ندوة شعرية ، تقيمها الرابطة الادبية الزحلية . وحضر هذه الندوة نخبة من رجال الشعر والادب ، على راسهم الشاعر المهجري شفيق المعلوف ، واخوه الشاعر رياض المعلوف ، وكذلك الشاعر سعيد عقل .

وصعد المنصة الاستاذ رياض المعلوف ، وقدم الى المستمعين شاعرا مهجريا عاد الى الوطن حديثا ، اسمه ( الاستاذ شكر الله الجر ) ، ورأينا فيه رجلا نحيل العود ، معروق المحيا ، تخطى مراحل الشباب من عهد ليس قريبا ، وبدا ينشد اشعاره ، وكانت صورا سجل فيها كفاح المهاجرين اصدق تسجيل ، ولمحنا فيها ما يتحملونه في مهاجرهم من قسوة الحرمان ، ولوعة الحنين ..

واستمر يعرض مشاهده بصوته العميق ، ونبراته المؤثرة ، حتى استغرق ذلك ، الفترة المحدودة للمحاضرة ، وهم بان يختتم حديثه ويجلس ، لولا اقترح عليه مقترح بأن ينشد ملحمته اللبنانية ، وبدا ينشدها ..

وكانت ملحمة فعلا ، تحدث فيها عن امجاد لبنان الاشم، الذي استعصى على الفاتحين من زحوف الصحراء ، والذي استجاب للصريخ يوما حينما جاءه من ملك بيزنطة ، فهب رجاله كالاسود الكواسر ، وداسوا بخيولهم المطهمة بلاد الشام من السهل الى الجبل ، وكسروا شوكة الخليفة معاوية .. وعادوا من هناك بالغنائم والسبايا والاسرى ، وانقذوا كل ذات سوار من بنات الروم ، لتعود مكرمة مصانة الى ملك بيزنطة ..!!

وعجبت ما شاء الله ان اعجب ، كيف وقعت احداث هذه الملحمة في نجوة من التاريخ ، فلم يتنبه اليها ، ولم يدونها بين صفحاته ، لا باقلام المؤرخين العرب ، ولا غير العرب ..!!

ورايتني أقف في نهاية هذه الامسية ، ليقدمني الشاعر رياض المعلوف الى اخيه شفيق صاحب ديوان ( عبقر ) و ( سنابل راعوث ) . والى سعيد عقل .

واغتنمتها فرصة ، فقلت للاستاذ شفيق المعلوف : «ليت والدك المؤرخ الباحث الاستاذ عيسى المعلوف لا يزال على قيد الحياة ، فكنا نحتكم اليه في هذه الملحمة ، التي انشدها الاستاذ شكر الله الجر ، ليدلنا على مكانها بين مصادر التاريخ ، ونعلم منه : ان كان قد هاجم اللبنانيون العرب بلاد الشام حقا في عهد الخليفة معاوية ، فاسروا فيها وسبوا وغنموا انتصارا لملك بيزنطة !!.. » .

قلت ذلك والحاضر يسمع ، فلم اسمع منه ما يقوم جوابا على هذا السؤال ، واني لعلى يقين انه لن يتنصل من هذه الملحمة ، وقد سمعها معي كثيرون في ذلك المساء ..

وقد رايت — استكمالا للمعرفة — ان التمس راي الاساتذة الاجلاء : علي ناصر الدين ، وعبد الله العلايلي ، ويوسف يزبك ، والدكتور نقولا زيادة .. وكلهم فارس هذا الميدان . فلعل عندهم ما غاب عني علمه ، فيكون فيه تبصير لي ولمن كان مثلي ، او تصوير للاستاذ شكرالله الجر ، ولمن سانده في رايه واطمأن الى ما يقول ..

ان الموضوع يتعلق بتاريخ لبنان خاصة والتاريخ العربي عامة ، ولا يتعلق بشيء عدا ذلك ، وان حقيقة التاريخ امانة، لا يكتمها من احاط بها علما ، او عنده اليها سبيل ..

عمان — محمد سليم رشدان

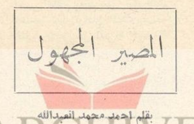


عندما وقفت على مبتدا الطريق . وحقيبة الملابس في يدي .. كنت اتساءل في سري : هل اتابع السير ، ام امضي هذه الليلة في المدينة .. الوقت قبيل المساء .. رعشة من البرد تهز أعصابي .. سحب كثيرة تتصارع في الفضاء .. انها تنذر بعاصفة ممطرة . وتلفت حولي فلم ار اي حانوت مفتوح ، فكلها مغلقة ، واصحابها من خلف النوافذ الزجاجية ينظرون بفضول الى كل عابر سبيل يمر امامهم .. يترقبون سيارات الركوب التي تجيء وتروح ما بين حلب ودمشق انهم اشبه شيء بالصياد ، الذي ينتظر فريسته الساعات الطوال لينقض عليها .. دقائق معدودات وينفضون غبار الكسل ، ليعلنوا عن بضاعتهم من جديد ..

هذا ينادي « الشاي ساخن يا بردان » وذاك يصيح من بعيد «السندويش يا جوعان» وما ان تغادر السيارة مكانها .. حتى تهدا الجلبة ويخيم السكون . لقد فقدت الامل في المطية التي وعدني بها زملائي قبل ان اغادر القرية . واكبر الظن انهم لم يتوقعوا مجيئي في مثل هذا اليوم المثلج .

وسرحت نظري في تلك الطريق الممتدة التي لم يبق من معالمها الا النذر اليسير .. ثمة مواطىء حافر لاحدى دواب الركوب لا تزال ظاهرة مما يدل على انها لم يمض عليها زمن طويل .. لكني لم استطع معرفة اتجاهها .. كان كل شيء يقع نظري عليه مكللا بالبياض ، حتى اغصان الشجر العارية واسطحة المنازل . وهذه حانة ابي ناصيف المنعزلة عن ذلك الشريط من حوانيت الباعة تتعمم بالبياض .. انها مغلقة الابواب والنوافذ ساكنة عن الحركة ما عدا كوة المدفأة البارزة من اعلى البناء ، يتصاعد منها دخان كثيف يدل على احتراق البترول البطيء . وتاقت نفسي الى شرب كاس من الشاي الساخن ، لكنني خفت ان ياسرني الدفء فيثنيني عن عزيمتي .. يجب ان اكون على راس عملي صباحا .. انها تجربتي الاولى في الحياة ، وستكون الحد الفاصل بين النجاح والفشل .. يجب ان اعكس النظرة المتشائمة التي لبست عقولهم .. صاحب السيارة الفارهة والبناء الشامخ .. رجعي .. عائل على المجتمع .

لقد قرعت سمعي امثال هذه الكلمات اكثر من مرة ، وتحاشيت الرد عليهم اكثر ، واصبح من المحتم علي ان اعمل شيئا لافك ذلك الحصار الذي ضرب حولي ، فعقدت العزم ان اقطع المسافة .. انها لا تتجاوز الخمسة كيلومترات مسير ساعة من




بقلم احمد محمد العبدالله

الزمن لا اكثر .. حملت الحقيبة وتبعت آثار الحافر باتجاه القرية .. قدماي تغوصان بالثلج ..

يا للطريق اللعينة .. متى سيقومون باصلاحها .. لقد ضحكوا كثيرا حينما علموا انني اصبحت معلما في الريف.

واسف خالد حينما علم بالخبر . خالد رفيق الدراسة وابن القرية يحزن عندما اصبحت اشاركه الحياة ؟ لماذا؟ اليس هو الذي جعلني أعشق الريف قبل ان اراه ، فتركت دراستي الجامعية لاجله .. ربما كان يظن انني لا استطيع العيش في القرية .. هذه رسالته الاخيرة لا تزال في جيبي .. اذا كان قد نسي ذلك اليوم الذي تقبل فيه الاهانة من اجلي فلن انساه ..




انني اعترف بانه اول انسان جعلني انظر الى الحياة من نافذة يمكنني ان ارى منها ما لا يراه ابي وامثاله .. كان يبتسم بمرارة وهو يبتلع الصدمة، حينما ابتعد عنه ابي ولم يرض بمصافحته ، لانه رث الثياب ريفي .. لقد ادركت الآن ما كان يرمي من وراء الرموز التي كان يرسمها على كراسته .. كنت اشك في ذوقه احيانا ، عندما كان يطاول بكوخ الطين أعلى الابنية في المدينة ، وحينما يجعل عربة الخيل تفوز بقصب السبق على السيارة . وشعرت ان قدمي قد ثقلتا من كثرة ما علق بهما من الطين ، فلم اعد اقوى على السير ، ووجدت ان المسافة التي قطعتها لا تتجاوز الكيلومتر الواحد ، وقد بدا العرق يتصبب من جبيني ، على الرغم من برود الجو .. الطريق لا تزال طويلة ، وبدات مخاوف حلول الظلام تدب في اطرافي دبيب النمل ، فتندحر امامها جحافل الشجاعة ، وراح شعاع الامل الذي يراودني يخبو رويدا رويدا كذبالة مصباح اوشك زيته على النفاد واضحت تتراءى لي رؤوس الصخور البارزة ، من خلال الثلوج كانها وحوش تحوط بي .. تنتظر حلول الظلام لتفتك بجسمي وفجاة سمعت صوتا يقطع جدار الصمت الذي ضرب حولي ، فانتفض قلبي خوفا وازداد وجيبه بسرعة مدهشة ، ثم عاد الى هدوئه عندما اقترب مني صاحب الصوت . انه حامد جارنا في المدرسة .. كان قد بعث به زملائي الاساتذة حسب الوعد لقد اعتذر لي عن سبب غيابه في قضاء بعض الحوائج قبل ان اصل المدينة ، ولولا اصحاب الحوانيت لما علم بمجيئي . شعرت بطعم السعادة بعد ذلك العناء وارتاحت نفسي لحديث حامد على بساطته وعفويته .

كان يحدثني عن تقلبات الانواء بعد ان ركبت وراءه على ظهر البغلة — فياتي بدلائل واشارات طريفة وساذجة تكاد تكون قريبة من الحقائق العلمية . لكن فترة السعادة لم تطل حيث هبت علينا ريح شديدة البرودة . وبدات

السحب تنسفح على وجهينا رذاذا ناعما ، فتوقفت الدابة عن المسير ، وراحت تضرب الارض بيدها فتتناثر علينا قطع الثلج الموحلة من حافرها، وتزور عن الحفر الحمر التي اذاب المطر الثلج عنها . بينما كانت رجلا حامد تعمل في جنبها وكزا ليحملها على المسير وانا ارتعش من البرد ورآءه . مد يده الى عباءته الصوفية ونشرها فوقنا كالخيمة ، ثم كلمني ضاحكا : لا تجزع يا استاذ . سنصل قريبا للدفء بجانب المدفأة . وقهقه بصوت مرتفع . يجب عليكم يا ابناء المدن ان تلمسوا ولو قليلا مما نعانيه في الريف انا نؤمن لكم الغذاء والكساء ونتحمل الجوع والعري وانتم ؟ ولم يكمل جملته ، سقط كلامه في نفسي. واردت ان اغتصب بعض كلمات الشكر . لكنه غير الحديث بلباقة ، كي لا يجعلني اسير الحرج والمنة ، وراح يحدثني عن اسباب الزواج المبكر في القرى - بعد ان علم انني لا ازال عزبا - وعن المصاعب التي يبذلها الرجل حتى يحصل على شريكة حياته . لست ادري كيف خرجت الكلمة من فمي ، عندما قلت له : ان المراة عندكم كالسلعة تباع وتشترى لقد اسأت اليه . لكنه قابل الاساءة بصدر رحب فاجاب : صحيح ان مهر المراة عندنا مرتفع ، لكنها في الحقيقة شريكة حياة لا عارضة ازياء كما تقولون . انها كنز امانة في البيت ، لا تعرف البذخ والتبذير . تقنع بكفاف العيش من قنع عاش يا استاذ اليس كذلك ؟؟ واستمر في حديثه دون ان ينتظر الجواب قائلا .

لكن قل لي بربك اليست قريتنا جميلة .. أنظر ها نحن قد وصلنا الآن - ورفع العباءة عن راسي - وما هو رايك فيها بعد ان تنار بالكهرباء ، وتفتح بها الشوارع ، وتزاح هذه الانقاض من حولها كما وعدتنا الحكومة بذلك ؟. هل هناك اجمل من سماء القرية ؟ الم تكن تخرج يا استاذ في الليل ، وتنظر الى القمر وهو ينشر نوره الفضي على هذه الحقول الشاسعة قبل ان يغمرها الشتاء بسيوله المنهمرة . نحن نحب الشتاء كثيرا يا أستاذ . لانه مصدر الخير والعطاء والروح المحركة للحياة في الريف . ونطرب لنقيق الضفادع وصياح الصراصير كما تطربون لانغام الموسيقى واصوات المغنين . وتوقف عن الحديث عندما وقفت بنا الدابة امام منزله . استاذنته ان يسمح لي بالذهاب الى بيتي ، فاغلظ الايمان انني لن اغادر بيته حتى الصباح ، ونادى بعالي صوته ابنه محمود ، فرضخت لارادته وعندمدخل احدى غرفتين متجاورتين كان يقف محمود وبجانبه فتاة فارعة الطول ، لم اتأكد من مرآها . عندما توارت خلف الباب جلس ، وقد احس الظلام يخيم على فناء الدار ، وعندما كنت ارتدي المنامة بعد ان خلعت بذلتي في الغرفة المجاورة .

سمعت ابا محمود ينادي الفتاة : اسرعي باشعال النار يا فاطمة ، بينما ذهب محمود بالدابة الى الاسطبل وبقي هو لتهيئة البيت قبل دخولي.

فراش وثير ، ووسادتان خلف ظهري ، ودفء يملأ المكان ، فمددت رجلي ، باسترخاء لانني وجدت للدفء طعما جديدا كما قال لي حامد في الطريق ، بعد التعب والبرد اللذين تعرضت لهما ، بينما كانت عيناي تختلس النظر الى فاطمة وهي بجانب الموقد تضرم النار . كانت تهرب من نظراتي عندما تتلاقى اعيننا ببعضها ، واحيانا تتعثر في مشيتها وهي تحضر اطباق الطعام . انها اول مرة احس فيها دقات قلبي مسرعة وانا انظر الى فتاة ، واول مرة اجد نفسي مرتبكا في تناول الطعام . كنت عاجزا عن المقاومة راكعا بخشوع استجدي نظرة تائهة من عينيها العسليتين والتمس املا طفلا في رقة ابتسامتها . اتلجلج امام سحر البراءة الذي تمثل في محياها ، وكم كنت اتمنى ان تفك القيد عن شعرها الذهبي . لقد انسلخت تلك الليلة من حياتي وكأنها العمر كله، لم اذق فيها طعم الكرى.. كنت اتقلب في الفراش تحت سياط الهواجس ، وجهدت نفسي ان احوش ما هرب من عيوني فلم افلح ..دوامة من القلق تلف كياني ، حتى اصبحت كذبابة علقت ارجلها في خيوط العنكبوت ، كلما حاولت التخلص منه يشتد وثاقها .

كنت افكر .. لماذا لا تكون فاطمة شريكة حياتي .. انها الوحيدة التي يمكن ان اركن اليها بنفسي وروحي.

ولتذهب ابنة عمي ( فيفي ) وامها الى الجحيم .. اريد ان اعيش حرا طليقا ، لقد ضقت ذرعا بالتقاليد الطبقية انني امقتها .. امقت ابنة عمي وامها وابي .. امقتهم جميعا.. طعامهم وشرابهم .. سهراتهم..حتى التحية كلها تقليدية . انهم مجرد آلات تلعب بها العادات والتقاليد ، كما يلعب الاطفال بالدمى .. انني اكره هذه الحياة المقيدة..اكره الانحناء.. اكره الفوارق الطبقية .. انني احب الطبيعة .. احب البراءة .. انها فاطمة فلست اول من يهوى لاول نظرة .

كل هذه الافكار كانت تلعب بمخيلتي كما تلعب الريح باوراق الخريف .

وشعرت بتيار هوائي بارد يدخل من شق الباب .. لا بد وان يكون هناك انسان خلفه ، فتململت في فراشي اغتصب السعال .

الا تزال مستيقظا يا استاذ جهاد؟ انه حامد يقدم لي تحية الصباح . اراد ان ينبهني ان دوام المدرسة قد اقترب . الساعة تقارب السابعة .

وعلى مائدة الافطار كانت الافكار تتقاذفني ، لا ادري كيف افاتحه بالموضوع ، وهو يحدثني عن المشاق التي يتكبدونها في سبيل الوصول الى لقمة العيش ، بينما كنت منصرفا عنه بافكاري، لا افقه شيئا مما يقول.

اتجمع حول نفسي واضغط على اعصابي .. اتحين فرصة مناسبة اتقدم فيها بطلب يد فاطمة .

فاخذت جرعة من كاس الشاي ثم جمعت عزيمتي ، ورحت احصي الكلمات التي أريد قولها .

توقف حامد عن حديثه حينما

# يا حلوة الثغر

لم يبق غيرك ينبوع لالهامي   غلواء لا تضحكي من دمعي الهامي !
روحي فدى ثغرك المعسول ما رقصت   الا عليه اهازيجي واحلامي
لكم ترشفت في الاوهام خمرته   وكم سكرت وكم اسكرت اوهامي
الله يشهد ما وشيت قافية   الا رأيتك تختالين قدامي
جنحت باسمك انغامي وقلت لها   طيري ، فصفقت الدنيا لانغامي
وزنت باسمك شعري فازدهى طربا   وطاف يشغل احبابي واخصامي
وجئت باسمك باب الوحي اطرقه   فقاد جبريل بين الشهب اقدامي
غلواء يا ملتقى وجدي وعاطفتي   ويا محجة آمالي والامي
لا تتركيني ظمآنا الى شفة   ريا تشارك في تقصير ايامي
ما قيمة الكرم ، ما جدواه ، ما يده   ان لم يوفر مجانيه لكرام ؟
هل تذكرين على « الفردوس » سهرتنا   في غفلة من اذى واش ونمام
طرنا اليه وكان الوجد ثالثنا   ضيفا توسد جرحي قلبنا الدامي
يلفنا الليل في اعطاف بردته   ظمأى تضن بسقياها على ظام
اخذت كفك في كفي اقبلها   وكدت آكلها من شوقي الطامي
وانشقت الارض عن ابليس يهمس في   اذني ويسخر من خوفي واحجامي
يقول هذي مجاني الحسن دانية   فاقطف ، وسبح باحساني وانعامي
واوشك الشاعر القديس يتبعه   لولا عتاب ثناني بعد اقدام
يا شاعر الروح اخشى ان تكون يدي   في جارح الشوك لا في النرجس النامي
خيبت ظني فهل تحبيه ثانية   يا ليتني لم ازل في ليل اوهامي
احببت روحك لم يعلق بها وضر   فلن اشوه هذا الحب بالذام
احببت شعرك ايمانا وعاطفة   فكيف امسخه اضغاث احلام ؟
وقلت اهواك يا غلواء بلبلة   فهل يهيض جناحي سهمك الرامي ؟
وقلت اهواك يا غلواء زنبقة   فكيف تطرح في الاوحال اكمامي ؟
يا شاعر الروح مالي عنك مصطبر   وان تغامز عذالي ولوامي
لكن خلقي من الزلات يعصمني   الا يقيك الهاوي خلقك السامي ؟..

اخفيت وجهي وذابت مهجتي خجلا   وانهار ما كان من نقضي وابرامي
ورن صوتك كالتسبيح في اذني   يمحو برأفته في الحب اجرامي
فاسترجع القلب ما ضيعت من امل   وطهرت دمعة التكفير آثامي

يا حلوة الثغر يسبيني بضحكته   لولاك ما خففت في الشهب اعلامي
لم يبق غيرك في دنياي انشده   شعري ، وتعنيه افراحي واسقامي
كرمى لعينيك ما لاقيت من عنت   وما تحملت من كيد وارغام
هيهات تعظم في عيني تضحية   ما دام هذا المحيا نبع الهامي

الارجنتين   زكي قنصل



---

استقرت اللقمة في فمه .. فبادرته.

ــ عم حامد .. هناك شيء اريد ان احدثك فيه لكنني خجل .

ــ خجل !! لا يا استاذ .. لقد اصبح بيننا خبز وملح .. الا تعرف عاداتنا ؟ تفضل قل ما تريد .

لكن قبل ان انسى .. انني اريد ان تشرفنا مساء . هذا اليوم ( شعرت وكأنني قد ازحت حملا لا يقل عن عبء الطريق التي مشيتها امس ) . وسألته .

ــ ما هي المناسبة ؟..

ــ اجابني والابتسامة على شفتيه. عقبال عندك يا استاذ ، نريد عقد قران فاطمة على ابن عمها سعيد .

ــ فاطمة .. وارتعشت يدي ، وتحلب السائل الساخن من بين اصابعي ، ثم غاصت الكلمات في حلقي يا الهي هل انا في حلم .. كلمة قلتها قبل ان انهض لانتعال حذائي .

مبروك يا عم حامد .. مبروك وادرت ظهري لاستقبل مصيري المجهول .

دمشق   احمد محمد العبدالله

# مدخل الى ادب فرنسوا مورياك

بقلم جورج سالم

* * *

ان في الحديث عن ادب مورياك لجراءة كبرى ، اذ كيف السبيل الى الاحاطة بهذا العالم الروائي الواسع ، العامر بالاشخاص ، المليء بالصراع ، الحافل بالتناقضات الذي يثير العديد من المشكلات الانسانية والدينية والفكرية ، هذا العالم الذي اقام مورياك نصف قرن يشيده رواية بعد رواية، وشخصية اثر شخصية كما يشيد الباني بناية منسجمة الارجاء تامة التكوين ، دقيقة الصنع والبناء ؟! لا شك في ان هذا العمل يبدو صعبا ، ويكاد يكون مستحيلا ، وحسبي ان اشير في هذه الدراسة الى الخطوط الاساسية البارزة ، والمعالم الكبرى الهامة في هذا البناء الشامخ وان تكون هذه الصفحات مدخلا متواضعا لقراءة ادب فرنسوا مورياك العظيم .

ولعل اول ما يلفت انتباهنا في دراسة هذا العالم ، انه يقوم كله في منطقة واحدة لا يكاد يبرحها ، هذه المنطقة هي مدينة بوردو والارياف التي تحيط بها . ففي هذه المدينة وضواحيها تجري احداث الروايات التي كتبها مورياك جميعا ، ومرد ذلك الى ان مورياك قد ولد في هذه المدينة وفيها سلخ فترة طويلة من حياته ، مما اتاح له ان يعرفها معرفة دقيقة غاية الدقة ، ولقد كتب بهذا الصدد ، قال : « ان مصيري يتركز في هذه المدينة وضواحيها .» ويضيف قائلا : « ان المنازل في بوردو وشوارعها هي التي تؤلف احداث حياتي ، فحين يخفف القطار من سرعته ، فوق جسر الغارون ، والمح في الغسق ، المدى الواسع الذي يتراجع ويلتحم بانحناءة النهر ، ابحث هناك في المكان المعلم ببيت الناقوس ، او باحدى الكنائس ، عن سعادة او عناء او خطيئة او حلم (١) . » ويعتقد مورياك ان معرفته بهذه البلدة والمنطقة التي حولها تتيح له ان ينقل خطا ابطاله في كثير من اليسر والسهولة . فهو ، في مفهومه هذا للمكان، كاتب واقعي يتخذ الارض نقطة انطلاق له ، وفوق هذه الارض التي يعرفها حق المعرفة يدير رحى مآسيه وحوادث رواياته . وهو يقول في شرح ذلك : « لست استطيع ان اتخيل رواية ما دون ان يكون المنزل الذي ستجري فيه الحوادث حاضرا في ذهني، يجب أن اعرف المنطقة المجاورة له معرفة عميقة لا سطحية . وهكذا فما من مأساة تستطيع ان تحيا في ذهني ان انا لم اضعها في الامكنة التي عشت فيها ردحا طويلا من الزمن ، ينبغي ان اتابع تنقلات ابطالي من غرفة الى غرفة ، وقد يحدث أن يكون وجههم غير واضح بالنسبة الي ، وربما لا اميز جيدا خيالاتهم ولكنني استنشق رائحة الحجرات التي يجتازونها ، واعرف كل ما يستنشقون وما يتناهى الى اسماعهم في اية ساعة من ساعات النهار أو الليل .

هذه الضرورة قادتني الى رتابة مكانية سيطرت على رواياتي جميعا . انها تلزمني ان استعين بكل المنازل والحدائق التي عرفتها او عشت بين ارجائها منذ طفولتي ، ولكن املاك اهلي واقاربي ربما لا تفي بالغرض ، فاراني مضطرا الى ان اغزو منازل الجيران ، وكثيرا ما رايتني ادير رحى اقسى الفواجع في عقر منزل من تلك المنازل الريفية التي طالما اكرم اصحابها وفادتي وقدموا الي ما لذ وطاب من المآكل والمشرب (٢) . . »

ولقد كان مورياك مخلصا في تحقيق نظرته هذه ، اذ ادار معظم رواياته في هذه البيئة التي يعرفها ويحبها ، فرواية تيريز ديكيرو تجري احداثها في هذه المنطقة وكذلك رواية والدة ، وعقدة الافاعي وصحراء الحب ، ودروب البحر ، والصبي القذر ، ونهر النار ، وكاليغاي ، والحمل وغيرها .

* * *

فاذا انتقلنا الى دراسة الاشخاص الذين صورهم مورياك في ادبه وجدنا انهم يكادون ينتمون جميعا الى الطبقة البورجوازية التي ينتمي اليها مورياك نفسه . فهو يعني بتصوير هذه الطبقة بكل ما فيها من عواطف وميول ومتناقضات . ويعرض مفاهيمها ومآسيها وضعفها وترديها . وهذه الصورة التي عرضها للطبقة التي انحدر منها ، ليست بالصورة المشرقة الجميلة ، بل انها لصورة قاتمة سوداء مؤلمة ، وكان حديثه عنها « اشبه شيء بلحن جنائزي يعزف للفئة الاجتماعية التي تربطه بها روابط الدم والارض (٣) » ولقد صور مورياك عددا من المفاهيم التي تتبناها هذه الطبقة ، ولعل من ابرز هذه المفاهيم قضية المكانة الاجتماعية والحفاظ عليها ، وحب المال والتعلق به والرياء في ممارسة شعائر الدين والعلائق الاجتماعية .

ففكرة المكانة الاجتماعية تشغل حيزا كبيرا من اهتمام ابطال مورياك ، وتحدد سلوكهم وتملي عليهم تصرفاتهم وتفسرها . والشواهد على ذلك كثيرة متناثرة في تضاعيف رواياته . وبحسبنا ان نقف وقفة قصيرة حول قصته المسماة « المكانة الاجتماعية (٤) » التي يبلغ فيها ذروة فنه في تصوير هذه العقلية البورجوازية ، فبطل القصة اوغست دوبري Auguste Duprouy وهو الفقير المعدم الذي يعيش على نفقة ابن خالته ، يعمد الى نقل جثمان اخته الى مقبرة الاسرة ، فيستأجر لذلك سيارة خاصة ، رغم ادقاعه ، وما يكلف هذا النقل من باهظ التكاليف ، وذلك حفاظا على مكانة الاسرة الاجتماعية ، واوغست في تصرفه هذا لا يخرج على مفاهيم اسرته كلها ، فقد احتفظت الاسرة

* محاضرة القيت في النادي الكاثوليكي بحلب في موسمه الثقافي لهذا العام .

بالخادمة ، وهي على ما هي عليه من الفقر ، لان من الضروري ان تكون للاسرة خادمة ، كما حالت دون زواج احدى فتياتها من ابن اخ كاهن المنطقة لانه منحدر من اسرة دون أسرة دوبروي ، فهو ابن موظف في البريد ، ومجرد محاسب لدى احد تجار الحبوب ، ولتبق الفتاة عانسا ولتجف وتزو شيئا فشيئا . « كان لها نحو الاطفال نوع من الجوع الجسدي ، واخيرا انفجر مرضها : فاضطروا الى قطع احد ثدييها ثم الى قطع الاخر » وفي القصة نفسها عرض لوضع اوغست دوبروي الذي قضى عليه تمسك الاسرة بمكانتها الاجتماعية ان يظل عزبا حتى موته . فما اكثر ما اقيمت العراقيل دون زواجه من فتاة كانت تحبه ولكنها لا تنتمي الى الطبقة الراقية ، ولان زواجه كان يعني ان تتنازل الاسرة عن بعض علائم الرقي كأن تتخلى للزوجين عن غرفة الضيوف التي كانت الاسرة تتباهى بها امام الناس. اما اذا تزوج الشاب فلن يكون لها من بعد غرفة فارغة . « فالمنزل لا يتسع لاسرتين ، لذا فستقل قيمتهم الاجتماعية . » ونتجت عن ذلك كله المضايقات المستمرة والتصرفات المسرحية التي قام بها ذوو اوغست من تنهدات ودموع ومشاكل منزلية ولغط اجتماعي ورسائل مزورة يتحدث فيها مرسلوها عن سلوك الخطيبة الشائن ، واغلب الظن ان الام هي التي اعدتها وكلفت من يرسلها اليها . وانتهى الامر بالشاب الى ان يفسخ خطوبته (٥) .

واذا كانت للمكانة الاجتماعية هذه القيمة عند ابطال مورياك ، فان المال يلعب دورا أعظم في حيواتهم . وانا لنرى ، في وضوح ، تعلق ابطال رواياته بالمال تعلقا شديدا عنيفا ، فهو يشكل اهاب اجسامهم ونقا عظامهم . فاولئك الرجال والنساء الذين عمل اسلافهم الفلاحون خلال عصور طويلة في حرث الارض وزرعها واورثوهم اياها ، غدت كرومهم وصنوبرهم أثمن من خلاصهم واغلى . ومن هنا غدا المال عجلا ذهبيا يعبده اولئك الاشخاص ، فيضحون له بالقرابين، ويطوءون معظم الاقداس في سبيله ،ويستهينون بكثير من المفاهيم لاجله . فهذه ليوني كوستادو ، مثلا . في رواية « دروب البحر » لا تتردد بعد ان علمت بانهيار كاتب العدل ريفولو Révolou من الذهاب في منتصف الليل الى منزله لتنتزع من زوجه المسكينة وهي صديقتها الاثيرة ، توقيعا على صك يضمن لها قسما ما ، من ثروة اولادها (٦) . والزواج في هذه الاسر ، ليس اتحاد شخصين بل هو اتحاد ثروتين او ارضين اثنتين ، تقول والدة برنار زوج تيريز ديكيرو: «لا بد لنا من ان نغض الطرف عن بعض الامور ثم لكم أن تصدقوني اذا قلت أنها اغنى منا ، وهذا شيء لا يصدق ولكنها الحقيقة (٧) » . وفي سبيل هذه الثروة اغتفرت الحماة لهذه الفتاة كثيرا من هفواتها وغضت الطرف عن سلوكها الذي لا ترضى عنه . وفي صدد الحديث عن زواج تيريز ديكيرو يقول المؤلف في الرواية نفسها : «كانت البلدة كلها قد زوجتهما ، لان املاكهما انما وجدت ، كما يبدو ، لكي يختلط بعضها ببعض . » ويضيف في مكان آخر قوله : « لقد تزوجت تيريز من برنار لانه كان شقيق صديقتها الحميمة من جهة ، ولانه كان يملك ايضا ألفي هكتار من الاراضي المزروعة باشجار الصنوبر ، وكان حب التملك في دمها . » ولكن ، هل يستطيع الحب ان يقاوم المال ويتغلب عليه ؟ كان روبير كوستادو (R. Costadot) يتمنى ان يظل مخلصا لخطيبته التي انهار ابوها وانتحر ، ولكن امه ترفض هذا الزواج وتعمل جاهدة على الغائه ، تقول مثلا : « انا قضية مبدأ تسيطر على شيء ، فنحن ندافع عن الارث(٨)» ولم تلبث غريزة حفظ المال ان تغلبت على الحب . وهذه امراة عجوز ، جوليا دوبرنه (Julia Dubernet) في رواية كاليفاي ، اصيبت بداء السرطان تؤثر ان تموت في سرعة كيما توفر للاسرة نفقات عملية جراحية . كم من مشاكل تدور حول اسرة المحتضرين في روايات مورياك حول المال والارث والاراضي ! ان رواية « عقدة الافاعي » « لترتكز عقدتها على ثروة المحامي الشيخ الذي ينازع اولاده عليها ويجتهد ويسعى لحرمانهم منها . بل ان ابطال مورياك اذ ينفقون المال انما يفعلون ذلك لكسب اكبر ، وآية ذلك تصرفات بريجيت بيان (B. Pian) بطلة رواية « الفرنسية » فهي اذا كانت تنفق المال احتساب الخير والرحمة ، فما ذاك الا لتظهر للرب قيمتها ولكي يسجل لديه هذه الاعمال الصالحة في صفحة الحسنات ! وهذا المال ذاته يتيح لاسوا الرجال ان يتزوجوا من افضل الفتيات ، وحول هذا الموضوع المر ، كتب مورياك روايته المعروفة « قبلة الابرص » التي حملت اليه الشهرة الواسعة في مطلع حياته الادبية ، فبطل هذه الرواية جان بلوير (J. Peloueyre) انسان كريه مريض ، خجول ، لا قيمة له ، ولكن ثروته اتاحت له ان يتزوج من الفتاة الجميلة الفاتنة نومي داريتلي (N. D'Artiailh) فمهما كان هذا الزوج رديئا فان المرء لا يستطيع ان يرفض الزواج منه بل ان هذا الزواج او هذه الصفقة ، كانت مصدر حسد لاسرة الفتاة كلها ، وكانت الفتاة اما فكرت في رفض هذا الزواج واظهار تخوفها منه اجابها ذووها : « بان الرجل ليس بحاجة الى ان يكون جميلا ، وان الزواج ينتج الحب كما تنتج شجرة الخوخ ثمار الخوخ . . . وكان يكفي لاقناعها ان يكرروا هذه البديهية المعروفة : « أن الانسان لا يرفض ابن بلوير ، ان الانسان لا يرفض ابن بلوير ، لا يرفض المزارع والحقول وقطعان الخراف ، والاواني الفضية النفيسة ، والبياض الموروث عن اجيال عشرة والموضوع بعناية في خزائن عالية معطره — مصاهرة افضل ما في المنطقة ، ان الانسان لا يرفض ابن بلوير (٩) . » وكان الشاب نفسه لا يصدق سعادته فكان يقول : « سآخيفها » وها هما قد تزوجا . « كانت الفتاة العذراء تقيس بنظرتها هذه الدودة التي تكون مصيرها . » ويصف مورياك اقتران هذين الكائنين وصفا مخيفا اليما فيقول :

« كان على جان بلوير ان يكافح طويلا ضد جموده هو اولا ، ثم ضد فتاة ميتة ، وعند الفجر اعلنت تنهدة ضعيفة

انتهاء الصراع الذي دام ست ساعات ، ولم يجرؤ جان بلوبر المبلل بالعرق ان يتحرك ، كان اقبح من دودة وهو بالقرب من هذه الجثة التي تخلى عنها آخر الامر . » (١٠) .

ولكن جان بلوبر لم يلبث ان هرب الى باريس وقد غلبه اشمئزاز نومي الصامت ، فلم تكن هذه المراة لتتحمل الاقتراب من هذا الجسد المنفر او تملك هذا الابرص لها ، واخيرا عاد جان وقد انهكه المرض ليموت في المنزل، ومنذئذ عرفت ان اخلاصها للميت سيغدو نصرها المتواضع الوحيد، وان كل الدروب قد سدت في وجهها ، فلم يبق امامها الا ان تزهد في كل شيء وان تلزم الحداد طوال حياتها .

في هذه البيئة التي عرفنا جوها واهتماماتها وضع موروياك ابطاله كافة ، وطرح من خلالهم المشكلات الانسانية والروحية التي كانت تعتمل في ذهنه . ولقد صور الكاتب ابطاله تصويرا حيا صادقا حتى ليستطيع المرء ان يتعرفهم في يسر وسرعة . فهناك بطل أو نموذج انساني لموروياك كما ان هناك بطلا او نموذجا لبلزاك او لديكنز ... وفي وسعنا ان نقسم ابطال موروياك الى زمرتين اثنتين :

الاولى هي زمرة الاناس العاديين ، الناس ذوي النفوس الميتة ، او الانذال على حد تعبير سارتر ، اولئك الذين لا يعانون اية مشكلة ولا يعرفون غما او يأسا او مللا او تمردا، انهم اناس منصرفون الى عملهم في دأب الدواب وصبرها ، موزعة حيواتهم بين جمع المال وارواء الغرائز على اختلاف انواعها انهم « الاخرون » بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من رتابة واملال وانغلاق ، وابرز مثال لهم هو برنار ديكيرو في رواية « تيريز ديكيرو » وبوب لاغاف (B. Lagave) في رواية « مصائر » ودانيال تراسيس (D. Trasis) في رواية « نهر النار » وغرادير (Gradère) في رواية « الملائكة السود » .

اما الزمرة الثانية فهي زمرة الابطال ــ الوحوش (Les Monstres) الناس المعذبون المعذبون ، والقتلة المجرمون ، يعيشون حياتهم في الالم والملال والسعي وراء المجهول ، في صراع مستمر مدمر مع الشر الكامن في اعماقهم ، الذي يهدم الآخرين ويهدمهم ، ابطال الخطيئة والشر والرغبة في الامتلاك والسيطرة ، الشاعرون ابدا بالفراغ والوحدة بين الناس وفي المجتمع ، العاجزون دائما عن معرفة ما يريدون ، الظمأ الى الخلاص والرب ، المنغمسون في اليأس ، الذين لا يقنعون ابدا ، الباحثون عن الحب المقيمون في الصحراء ، صحراء الحب ، السالكون دروبا لا منفذ لها ، السابحون في بحر النار ، المنفذون جرائمهم ببطء ، انهم الحمل الضال الذي تحدث عنه الانجيل ، يقول احد هؤلاء الابطال : « ان المي ليس كألمك ، فالانسان يتألم وحده » . ولقد عكس هؤلاء الابطال الصراع الذي كان يمزق موروياك نفسه . يقول في يومياته : « ما ان اشرع في الكتابة حتى يتلون كل شيء بالواني الابدية وان ابطالي ليدخلون في ضياء ملتهب خاص بي ، لا ادافع عنه ، ولكنه ضيائي الخاص المميز . »

من هؤلاء الابطال الام فيليسته كازناف (F. Cazenave) في رواية « والدة » (Genitrix) ، وتيريز ديكيرو ولوى المحامي الشيخ في رواية « عقدة الافاعي » وبريجيت بيان بطلة رواية « الفريسية » ...

وفيليسته كازناف هذه ، امراة ارمل احبت ابنها الوحيد حبا قويا جامحا ، وظل هذا الحب يقوى ويشتد ، وابنها الشاب يكبر سنة بعد سنة ، والام محتفظة به كما يحتفظ البخيل بماله ، تعتني به ، وتيسر له سبل الحياة وتحيطه بكل ما يحتاج اليه ، وتدخل في روعه شيئا فشيئا كره النساء واحتقارهن ، وهكذا استطاعت ان تسيطر عليه وتحتفظ به وان يهرم الى جانبها ، فلم يتزوج ولكن كانت له خليلة يمضي اليها بين حين وآخر ، والام تغضي طرفها عن سلوكه هذا ، الى ان كان يوم تعرف فيه هذا الرجل المسكين الى معلمة ضعيفة، لم تلبث ان ذهبت بلبه ، فتزوجها رغم غضب امه وهو يشارف الخمسين من عمره . وكان فرنان (Fernand) هذا انسانا ضعيف النفس ، ضعيف الشخصية ، وما ان تم زواجه حتى راحت الام وقد امتلأت غيظا وجرحت في اعماقها ، تعمل جاهدة لاسترداد ابنها اليها . وسرعان ما نجحت في ذلك ، فقد استعاد فرنان الذي غلب على امره ، سريره الصغير في غرفة نومه المجاورة لغرفة امه ، واضحت زوجه متيلد تنام وحدها في شقة منعزلة عرضة للبرد والفزع ، ولا تلبث المراة بعد ان اجهضت ان تموت نتيجة اهمال الام وعدم عنايتها بها ، يصف موروياك موت المراة وهي وحيدة غريبة وصفا مؤثرا رهيبا فيقول :

« رفعت متيلد يديها وهي تعبر عن اشارة اللعنة ، ووضعتها لحظة امام عينيها ، حتى بعد ان هربت عدوتها ، وادهشها لون يديها البنفسجي ، واذا قلبها مخبول كعصفور يختنق واجنحته تدف بأشد ما تكون سرعة وضعفا . وحدقت عن كثب فلم تجد الا اظافرها الزرق ، بالرغم من هذا الضيق البالغ والعذاب الاليم ، فهي لا تعتقد في ابدية تلك الليلة وهي على شفا جرف منها ، ولما كانت متيلد وحيدة في هذا العالم فانها تحس بانها مشرفة على الموت، ولو كانت احبت لاضطرها العناق الى التخلص من قبضة الوجود ، فما كانت تريد الفراق ما دامت لا تعرف الالفة والمودة . لا صوت رهيب على سريرها يذكر اسم اله جبار ويهددها بمغفرة قاسية ، لا وجه يذرف الدمع عليها ويحزن على فراقها فيتيح لها بذلك مراقبة هروبها المنحدر الى ظل الموت خطوة خطوة ، لهذا ظفرت بالميتة العذبة ...ميتة الذين لم يحبهم احد (١١) . »

وبموتها تمت الغلبة للام واستعادت سيطرتها على ابنها بعد ان هزمت عدوتها الى الابد . ولكن غلبتها كانت قصيرة الامد ، ذلك بأن فكرة صارمة اليمة ملحة ، ظلت تعذب الزوج وتقض مضجعه « كان يجب ان تجعل من يسهر عليها » وسيطرت هذه الفكرة عليه خلال امد طويل كان

ضميره يعتمل هذه الفكرة التي كانت اثرا من آثار سيطرة ذكرى المرأة المتوفاة عليه ، فعرف على نحو غامض ان امه كانت مسؤولة عن موت زوجته . وها هو يهجر سريره الصغير ويعود الى سرير زوجته المتوفاة ـ بعد ان ماتت ـ وغدت امه فريسة هذا الالم الذي سيطر عليه ، وانفجر بين هذين الكائنين صراع حاد صامت ملؤه الحب والكره ، وينتهي ذلك كله بموت الام . يقول مورياك :

« نظر فرنان حوله ، فوجد الغرفة التي ماتت فيها متيلد، والاطار المصدف وهي لا تبتسم فيه ، وعصفورا يتسلق الاغصان ، ويشدو بصوت من الربيع ، وصباحا منعما بالدخان والشمس ، ووجد الا سبيل الى مفاجأة متيلد الا بالصعود من اعماق حياته الى اعلى قمة لاقرب لحظة من لحظات الماضي ، وحاول ان يحنن قلبه ذاكرا كم كانت حياتهما معا قصيرة الامد . والآن ، ولا فارق في الموت بين الكنة والحماة فعدوتها القديمة قد لحقت بها في المقبرة الثالثة الشمالية اللاصقة بالحائط ، كلتاهما اصبحت رهينة الفناء ، ولا يزال فرنان متضايقا من انه قضى جانبا قصيرا من حياته ، من اجل زوجته ، بينما بسطت عليه الام جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة (١٢) » . انه قضى جانبا قصيرا من حياته من اجل زوجته ، بينما بسطت عليه الام جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة .

ويقول في الرواية نفسها : « وقضت نحبها في نهاية الخريف ، ويروي سكان بلدة ( لانجون ) انهم اضطروا الى ان يمسكوا بفرنان كازيناف ، لانه انحنى على الحفرة انحناء من يريد ان يلقي بنفسه فيها . ولم يفهم احد انه كان يحاول فقط ان يلمح بين اشباح القبر في الظلات شكل التابوت الذي غدت فيه ماتيلد غبارا ورمادا (١٣) » .

وموت الام هذا اعاد اليها سلطانها وسيطرتها على ابنها، فاسترجعت هذه الام الغضبى المفترسة مكانتها في نفس هذا الابن ، فها هو يشيخ وحيدا تسهر عليه احدى الخادمات ، بينا ظل امه ورهبتها وحبها المدمر قد لبث مسيطرا عليه حية وميتة .

« لسوف يدهش كثير من الناس اني استطعت ان اتخيل مخلوقة ادعى الى الكره من سائر ابطالي ، اتراني استطيع ان اقول شيئا عن الكائنات التي تقطر فضيلة والتي تحمل قلبها على راحة يدها ، ان « ذوي القلوب على راحة اليد » لا قصص لهم ، بيد انني اعرف قصة القلوب المغمورة والممتزجة كل الامتزاج بجسد من الوحل (١٤) » .

بهذه الجمل يقدم فرنسوا مورياك تيريز ديكيرو الى الناس ، وفي هذه السطور الوجيزة نستشف صورة (تيريز ديكيرو ) التي يصفها المؤلف بانها من ذوي القلوب المغمورة والممتزجة بجسد من الوحل . ان تيريز ديكيرو هي امرأة قاتلة حاولت القضاء على زوجها بوضع السم له في شرابه. وكل الرواية تدور حول قصة التسميم هذه . ان قصتها هي قصة الحب الزوجي الذي يتحول على نحو لاشعوري الى كره واع . ولكن فيم اقدمت تيريز على ما اقدمت عليه؟

يقول جاك روبيشون (١٥) : « يمكننا ان ندعو رواية تيريز ديكيرو بـ ( تيريز او الحرية ) ذلك بان تيريز انما تطالب اكثر ما تطالب بحريتها . » لانها كانت تفنى مللا وضجرا في احد هذه الاماكن التي يستحيل على المرء ان يتجاوزها. . لانها تقع في آخر الدنيا ! وها هي ذي تستعمل السم سلاحا ترمي به صدر زوجها ، سجانها ، الرجل الذي قضى عليها باقسى محاصرة ، والحق ان تيريز لم تكن لتقتل زوجها فقد تزوجته كيما تجد لنفسها ملجأ ، فيما خيل اليها ، كانت على عجل في ان تحتل مكانتها الاجتماعية ، وتجد مكانها النهائي ، كانت تريد ان تكون في مأمن ضد خطر لا تعرف كنهه ، ولكن هذا الشاب ذا الجسم الضخم، قد استخدمها استخدامه لملف ، يقول موريك : « لقد سر برنار وهو الفتى ذو النظرة الموحشة ... لقد كان سجين متعته كتلك الخنازير الفتية التي كان من العار ان ينظر اليها المرء من خلال القضبان وهي تنخر سعادة في معلفها. (وفكرت تيريز في نفسها قالت: «كنت انا المعلف .» ) (١٦)

وهكذا اقام جسد زوجها بينها وبين الحرية حاجزا لم يكن في استطاعتها ان تتجاوزه او ترفعه . ولو ان برنار ديكيرو كان مرهف الحس غني الشعور لاستطاع ان يحمل الى تيريز نوعا من النجاة ولاستطاع ان يتيح لها ان تعرف الحب وان تحتفظ بها الى جانبه في الوقت نفسه ، الا ان شيئا من ذلك كله لم يحدث ، فقد خيبها فيما تصبو اليه دون ان يستطيع ان يفهمها . لقد استخدمها ثم القاها ليعود الى الامور التي تشغل ذهنه : الكلاب والصيد واليمام والطعام . وهكذا راحت تيريز تحاول ان تتحرر . وكان في استطاعتها ان تهرب كما ستفعل ابنتها فيما بعد في رواية « نهاية الليل » ولكن كبرياءها وخجلها لا يسمحان لها بمثل هذا الحل السهل . ومما زادها احساسا بجدب حياتها وحاجتها الى الحب تلك العلاقة التي قامت بين آن، اخت زوجها ، وشاب على قسط كبير من العمق والغنى الروحي ، هو جان ازفنيدو . وارتها هذه العلاقة وذاك الحب ، مدى الجفاف الذي تعيش فيه وكشفت لها عن تعطشها العميق للحب والسعادة ، لقد غدا جان ازفيدو بالنسبة اليها ، رمز حياة حرة وحسب ، رمز حياة مليئة كانت تريد أن تعيشها وكان كل شيء يفصلها عنها . كانت حاملا فازدادت شعورا بان وجودها الشخصي غير ذي قيمة وانها اناء مقدس يتلقى ذرية اسرة ديكيرو ، او هي وسيلة الجنس للاستمرار ، وسيلة غريبة عن هذا الجنس نفسه.

وكان يوم تناول فيه زوجها خطأ كمية مضاعفة من دوائه ، فلم تنبهه الى هذا الخطأ ، ونظرت مدهوشة ، مبلبلة النفس الى فكرة الجريمة تولد في نفسها ، وهكذا راح فكرها يحوم حول هذه القضية ، فاعادت التجربة وانتهى بها الامر الى ان تسقي زوجها السم بعد ان حصلت عليه بوصفة طبية مزودة ، الا ان السم لم يصب منه مقتلا، ولكنه دفع تيريز الى العدالة ، وكان ثمة اتفاق ان يصدر قرار بمنع المحاكمة حفاظا على سمعة الاسرة وان تعيش

تيريز وحيدة معزولة عن المجتمع وعن زوجها وابنتها .

تقول تيريز : « اما انا فلست اعرف جرائمي ، ولم ابيت هذه الجريمة التي يلقونها على عاتقي لست اعـرف مـاذا اردت ، ولم اعرف قط الى اية تتجـه هذه القدرة الجامحة داخل نفسي وخارجها ، وان ما سحقته في طريقها قـد بعث الهول في نفسي ذاتها . (١٧) »

ويبدو ان شخصية تيريز قد استحوذت على الروائـي الكبير فخصها بعدة قصص اخرى ، وراح يعرض جوانب اخرى من شخصيتها الفنية العميقة ، في رواية « نهـاية الليل » مثلا وفي قصتي « تيريز عند الطبيب » و « تيريز في الفندق » .

واذا كانت تيريز تمثل ابرز ابطال مورياك الذين اشرت اليهم منذ قليل حتى ليشبهها كثير من النقاد بفيدر راسين من نواح عدة ، فان شخصية المحامي الشيخ في روايـة « عقدة الافاعي » تحتل مكانة رفيعة في عداد الشخصيات التي ابدعها مورياك . فنحن في هذه الرواية امام نموذج جديد آخر من ابطالمورياك الذين يعيشون التمزقويشعرون بالحاجة العميقة الى الحب . فهذا المحامي الـذي يدون مذكراته في غسق حياته بعد ان اقام نصف قرن يبيت ثارا رهيبا لاسرته بان يحرمها من ماله ، ليس الا انسانا نهما الى الامتلاك والحب ، انه يعيش في اسرة تتكون من زوجته واولاده الثلاثة . فلا هو يحب زوجته واولاده ولا هم يحبونه . وان هذا الحقد الزوجي لقديم عنيد ، فهو يعود الى الفترة الاولى من زواجه . فقد ولد هذا الرجل في بيئة وضيعة ولكنه استطاع بدابه واجتهاده ان يصبح محاميا لامعا ، وها هوذا ينتقل الى بوردو ليقيم فيها ويجني ثروة طائلة نتيجة اجتهاده وعمله الحثيث . الا ان وضاعة اصله ظلت شجى في نفسه ، واذا كان قد دخل الاوساط الاجتماعية الراقية فانما فعل ذلك عن حسد ، يقول بهذا الصدد : « ان في حسدنا للناس الذين نحتقـرهم لهوى مخجلا يكفي لان يسمم حياة باكملها . » وهذا ما جعلـه مغرورا وحسودا ، يائسا من ان تتقبله الطبقة العليا بـين ظهرانيها . ولهذا كله فحين التقى بفتاة مـن الطبقة التي يصبو اليها ورضيت به زوجا ، راى في هذا الزواج نصرا اجتماعيا كبيرا بالنسبة اليه ، وهـو الانسان الذي لـم يستطع قط ان يحوز اعجاب احد . يقـول في مذكراته بهذا الصدد : رايت هذه الاسرة القوية تبسم لي (١٨) . . . « ولكن ما ان تزوج حتى اكتشف سر اهتمام هذه الاسرة به » ولكن كيف لي ان اتصور ان آل فوندوديج كانوا يرون في زواجك بي تجارة رائجة !؟ « فاسرة الزوجة كانـت بحاجة الى المال ، وكانت الفتاة قد اضطرت ان ترفض في العام السابق شابا كانت راغبة فيـه ثم هـي ترضى بهذا المحامي الذي لا تحبه . وهكذا فقد راى كل من الفريقين ، دون علم الفريق الآخر ، فائدة كبرى في هذا الزواج ، فهو يرفع من شان المحامي ، ويحمل الدعم المالي للاسرة الرفيعة التي تشكو الضائقة . ولقد وقع الشاب الذي كان يشعر بحاجة عميقة ملحة الى الحب في هذا الفخ الذي نصب له، ثم تاتي الحقيقة في احدى الليالي ، قاسية مروعة ، فقد باحت له زوجه ، بما كان خافيا عنه من امر حبها وماضيها. فادرك انها لم تكن تحبه . يقول في اعترافاته مخاطبـا زوجـــه :

« تزوجت هذا الشقي لانك وجدته في طريقك . فيذلك العام الذي اقتنعت فيه امك ، وقد نالها الكبر ، انك لـم تعودي قابلة للزواج » . . . ولانك لم تكـوني تريدين ولا كنت تستطيعين ان تظلي ستة اشهر اخرى فتاة بلا زوج ، ولانه كان لديهمن الغنى حجة كافية في اعين الناس (١٩) » .

ومنذئذ قام بينهما نوع من الطلاق الروحي واخفاق في الحب ادى الى اخفاق الحياة في الاسرة «لست تستطيعين ان تتخيلي هذا العقاب : الا يحصل الانسان على شيء في الحياة ، والا ينتظر شيئا من الموت . » ولكن هذا الرجل الذي اخفق في حياته الداخلية العميقة ، قد نجح النجاح الباهر في الحياة العامة التي انصرف اليها كل الانصراف. وكان حب المال في دمه فراح يجمع المال ويحرص ، عليه . يقول في ذلك : « اما انا فاحب المال . اعترف انه يطمئني ، فما دمت انا سيد المال فما لكم علي من سلطـان ، انـك تكررين امامي : « في مثل سننا لا يحتاج المرء الى المال. » ولكنك على خطأ فلا حياة للعجوز الا بما يملك ، فاذا افلس رذلوه وانكروا وجوده ، اجل اني اخاف الفقر حقا . »

ولنا ان نتخيل من بعد هذا الجو الذي قضي عليه ان يعيش فيه . فقد ابعدت عنه كل متع المحبة ومباهجالاسرة فعاش فيما يشبه الجحيم . « انظري يا ايزا مدى ما كنت فيه من تعاسة . . . انني لا اؤمن بالجحيم الابدي ، ولكني اعرف معنى ان يكون الانسان محكوما عليه فـي الارض ، ملعونا ، يخطيء في كل درب يسلكها ، كانت كل طرقاته في الحياة خاطئة . . لا يعرف ان يعيش ، ايزا ، انني اتعذب.»

هذا الرجل الذي يخطيء في كل درب يسلكها ويرى في كل الطرق التي يتجه نحوها طرقا مغلقـة في وجهه . . الحت عليه المصائب ، فقد ابنته ، وكانت الكائن الوحيـد الذي عرف كيف يجعل قلبه يخفق ، فتحمله زوجهمسؤولية هذه الميتة ، وكانما قضي على هذا الرجل ان يلتهم الموت ، العدد القليل من الناس الذين وجد فهم شيئا من التجاوب معه ، فها هي اخت زوجه تموت ، ولكنها تخلف وراءهـا طفلا كان المحامي يحب هذا الطفل لانه لم يكن يفزع منه ، لقد احبه كما يحب ابنا له : ولكنه لم يلبث ان مات فياحدى المعارك ، فلم يبق امام الرجل الا اسرته التي كبرت ونمـا عدد افرادها ، وغدت الاسرة كلها تترصده وتخشاه ،ولكنها تطمع في ماله ، فاحس بان افراد الاسرة كلها يراقبـونه ويطاردونه ويحصون عليه حركاته ويتجسسون عليه طمعا في ماله فامتلأ قلبه حقدا وكرها نحو الاسرة ، واصبحعقدة من الافاعي : « لا ، لا تحسبي اني ارفع كثيرا مـن شـأن

نفسي ، اني اعرف قلبي ، هذا القلب ، هذه العقدة من الافاعي ، يختنق بثقلها ، مشبعا بسمها ، وما يزال يخفق تحت هذا الضجيج ، عقدة الافاعي هذه يستحيل حلها ، ويجب قطعها بضربة من سكين ، بضربة من سيف» (٢٠) .

وها هو بعد ان مزقه هذا الجو الخانق الذي يحيط به، يحاول ان ينتقم من الاسرة كلها بان يحرمها من الارث ، ولكن حادثا لم يكن يخطر على بال قد وقع ، فقد ماتت زوجه ، وبموتها انقلبت ، مخططاته كلها وانهارت ، فقد اكتشف انه ما يزال يحبها ، وانه لم يعد يأبه للانتقام ، وان المال ليس شيئا ذا اهمية بالنسبة اليه : « لقد كان كل ما عملته مدى سنوات ، اني حاولت ان ابدد هذه الثروة ان اسبغها على مخلوق ليس واحدا من اهلي ، ولقد ضللت ابدا هدف رغائبي ، اننا لا نعرف ما نريد ولا نحب ما نحسب اننا نحبه » (٢١) .

ولعل اعمق ما استطاع مورياك بلوغه في هذه الرواية هو وصفه لهذا التحول الذي مس قلب هذا الشيخ ، واكتشافه خطأه الكبير . « كنت احس جريمتي ، كنت اراها والمسها ، لم تكن كلها في هذا الوكر الكريه ، وكر الافاعي ، في بغضي اولادي ، وطلبي الثأر ، وحبي المال ، بل كانت ايضا في رفضي البحث عما وراء هذه الافاعي المتراكبة ، لقد وقفت عند هذه العقد الكريهة ، كما لو كانت قلبي نفسه ، كما لو خالط نبضات هذا القلب فحيح هذه الزواحف ، ولم يكن حسبي مدى نصف قرن ، انني لم اعرف من نفسي الا ما لم يكن اياها ، بل طبقت هذا ذاته على الآخرين .

لقد ادرك الآن وهو على شفا الحياة ان ما كان بحاجة اليه هو المحبة «وما يخنقني هذا المساء ، وانا اكتب هذه الاسطر ، ما يوهن قلبي حتى ليكاد ينفطر ، هذا الحب الذي عرفت اخيرا اسمه المعبود » ...

ويستطيع القارىء ان يقول اخيرا مع المؤلف في مقدمة روايته هذه : « هذا الرجل عدو اهله ، هذا القلب الذي ينهشه الحقد والبخل ، اريد برغم صعته ان ترثي له ، وان يبعث في قلبك الحنان .

لا ، لم يكن المال ما يحبه هذا البخيل ولا الثأر ما يطلبه هذا المجنون ... (٢٣) »

ولا بد لنا في هذه الالمامة السريعة ببعض شخصيات مورياك من ان نتوقف عند شخصية هامة في ادب مورياك هي بريجيت بيان بطلة رواية « الفريسية » ففيها يلتقي النفاق بالدين في مزيج من الكبرياء والرغبة في بهر السيد وادهاشه بتقديم ما له حتى آخر فلس ، فهذه المرأة التي تملؤها الكبرياء الدينية تقف الى جانب الوحوش الذين خلقهم مورياك ، فرغبتها في امرة الآخرين ، وتوجيههم واخضاعهم والسيطرة عليهم باسم الدين ، قد جعل منها شخصية كريهة منفرة لا تتردد في ارتكاب اسوا الاعمال ، ومن عجب في ان نراها تثير الشر وتبعث الاذى حيثما سارت بدل الخير والمحبة ، فكان لها كثير من الضحايا الذين شردتهم تشريدا . حتى تنتهي آخر الامر ، الى ان تكتشف اخطاءها الجسيمة وتدرك اخيرا : « ان المهم لا ان يصبح الانسان ذا استحقاق عند الرب بل ان يحب . » .

نستطيع ان نلخص من ذلك كله الى القول ان مورياك قد صور نماذج انسانية قاتمة ، واعجب ما في هذا ان الاشخاص الذين عرضت نموذجا يسيرا عنهم ممن وصفوا دائما بانهم جلادون يعذبون الآخرين ويدفعون بهم الى الموت ، انما هم في الوقت نفسه ضحايا ، ومن هنا يتخذون هذه النبرة الانسانية المؤثرة فهم يعذبون الآخرين لانهم انفسهم معذبون. ومرد ذلك الى ظمأهم الى الحب وخطأهم في فهمه ، فالحب بالنسبة اليهم جميعا على حد تعبير بول اندره لاسور (٢٤) « نوع من الحرب ـ لا حرب في سبيل المعرفة بل في سبيل الامتلاك ، وليس ثمة فارق في طبيعة الحب الذي يربط ابطال مورياك ، بالاشخاص وبين حبهم للكروم ولغابات الصنوبر والاموال والدنار . ان الاشخاص ، لديهم هم اشياء يجب الوصول اليها والاحتفاظ بها واخفاؤها ، والامتلاك ليس بكاف ، بل ينبغي حرمان الآخرين منه ايضا. وان مثل هذا الحب لا يستطيع العطاء ، انه لا يستطيع ألا ان يفقد موضوع حبه ويحطمه . انهم يعيشون في عالم الامتلاك والنهم ، وعالم التحطيم والتدمير . والخير لبطل مورياك ان يهدم من ان يحرم من الملك . ومن هنا كان الموت في اغلب روايات مورياك جرائم قتل ، ولكنها جرائم تتم ببطء وعن بعد . » ان تحويل الآخرين الى ( شيء ) يستطيع المرء ان يتصرف به كما يشاء هو العذاب الاكبر بالنسبة لابطال مورياك . وهو باعث المهم وتمردهم . ان تيريز ترى الا قيمة لها في حد ذاتها ، بل هي وسيلة لحفظ الجنس . وفرنان كازيناف موضوع امتلاك امه . والمحامي الشيخ يترصده اولاده ويرون فيه ثروة مجسمة يجهدون في الحصول عليها .

وفي هذا كله ما يجعل الحياة في الاسر التي يصفها مورياك حياة لا تطاق . ان قولة سارتر المعروفة في مسرحية « جلسة سرية » (Huit-clos) « الآخرون هم الجحيم »

---

(١) اندره موروا : من بروست الى كامو . ص ١٤٨ . (٢) مورياك : الروائي واشخاصه ص ١٠٢ وما يليها . (٣) اندره موروا : من بروست الى كامو ص ١٥٣ . (٤) من مجموعته القصصية « المنغمرون » (٥) نشرت في مجلة المعرفة العدد الرابع والعشرين . (٦) دروب البحر ص : ٤٦ . (٧) تيريز ديكيرو ص : ٣٨ . (٨) دروب البحر . (٩) قبلة الابرص ص ٦٢. (١٠) قبلة الابرص ص ٧١ . (١١) والدة ص ٤٥ . (١٢) والدة ص ١٤٧. (١٣) المصدر نفسه ص ١٤١ . (١٤) تيريز ديكيرو ص ١٤ . (١٥) جاك روبيشون : مورياك ص ٥١ . (١٦) تيريز ديكيرو ص ٤٣ . (١٧) تيريز ديكيرو ص ٢٦ . (١٨) عقدة الافاعي ص ٢٤ . (١٩) المصدر نفسه ص٤٢. (٢٠) عقدة الافاعي ص ١٠٩ . (٢١) عقدة الافاعي ص ١٨٢ . (٢٢) عقدة الافاعي ٢٠٨ . (٢٣) عقدة الافاعي ص ١ . (٢٤) مجلة الطاولة المستديرة ص ١٢١ عدد ٦١ لسنة ١٩٥٣ . (٢٥) بواديفر : تحول الادب ص ٢٣٤ . (٢٦) جاك روبيشون : مورياك ص ٨١ . (٢٧) بيير هنري سيمون : ادب الخطيئة والنعمة ص ٨٧ . (٢٨) بيير هنري سيمون : مورياك ص ٧٧ . (٢٩) مجلة المجلة العدد ٦٧ ص ٦١ سنة ١٩٦٢ .

لا تضيف شيئا جديدا الى ما وصفه مورياك في روايته ، فالآخرون يقفون دائما امام الاشخاص وقفة جدار مغلق لا منفذ فيه ولا منقذ منه . انا لنرى الاشخاص يتعذبون في هذا الجحيم الذي صوره مورياك وحدهم ، في عزلة عن اي تجاوب مع اي كائن . ومما يزيد الالم شدة ان هؤلاء الافراد تربط بينهم اواصر الدم والارض كان مورياك يستعيد الآية المعروفة : «واعداء الانسان اهل بيته .» فالاسر والاهل والازواج كلهم يصطدمون بالشقاء نفسه ، وبالجدار ذاته ، بسوء التفاهم الاساسي للاجساد المتوحدة التي تدور في الفراغ دون ان يتاح لها ان تلتقي او تتحد . » .

اية هوة رهيبة تفصل بين الانسان وزوجه واولاده في روايات مورياك ، بين المحامي ، واسرته في عقدة الافاعي مثلا ، وبين تيريز وزوجها في رواية تيريز ديكيرو ، وبين الطبيب كوريغ وابنه وزوجه في رواية «صحراء الحب» وبين افراد الاسرة جميعا في رواية « الصبي القذر » .

يقول مورياك : « بين الآباء والابناء يرتفع جدار من الخجل والخزي والتفاهم والرقة المنفصة ، وللحيلولة دون قيام هذا الجدار لا بد من انفاق حياة كاملة (٢٥) » .

ويحق لنا ان نتساءل في نهاية المطاف : ما هدف مورياك من ذلك كله ، وماذا عسى ان تكون وجهة نظره التي يسعى لينقلها الينا فيما كتب ؟ ان صفحة من يوميات موريـاك تحمل الجواب حيث يقول : « انني ميتافيزيقي يعمل في المحسوس ، احاول ان اجعل عالم الشر المسيحي شيئا قابلا للادراك يمكنك ان تلمسه وتشم رائحته . أن اللاهوتيين يعطوننا فكرة مجردة عن الخطيئة ، اما انا فاكسوها لحما ودما » (٢٦) .

وليس هذا بعجيب فآثار كل اديب كبير تحمل وجهة نظر فلسفية في الحياة والوجود . واذا كان مورياك قد صور عالم الخطيئة والشر فلأن هذا الموضوع كان مدار تفكيره طوال حياته . لقد سعى مورياك الى ان يرسم الجانب المظلم من الحياة ليثير بذلك الى الجانب النير منها . وهو من حيث انه روائي ، لا يستطيع ان يتحدث عن الابرار الصالحين . « ان مجال الروائي هو عالم الاهواء الانسانية وهذا يعني عالم الخطيئة بالضرورة » (٢٧) . « ان ذوي القلوب على راحة اليد لا قصص لهم » وان ما يعطي ابطال مورياك قيمتهم هو هذه الثنائية بين الخطيئة والرغبة في المحبة والخلاص . وقلما يتـاح لاشخاصه بلوغ المحبة الحقيقية الا في اواخر حياتهم بعد ان يجتازوا نهر النار ويكتووا به ، لهذا فاننا نجد في اعماق آثار مورياك نظرة لاهوتية للخطيئة . فهو لا يعتبرها انتهاك الشريعة الالهية كما يرى ذلك فريق من المفكرين ، بل يرى فيها رفض الخليقة للخالق وانحراف الحب نحو الذات والاشياء وهذه هي نظرة القديس اغسطين (٢٨) وان مورياك ليؤمن بأن الخلاص يقوم على ايجاد طريق المحبة وان من لهم قيمة هم اولئك الذين يحبون ويحترقون . « لان من الخير ان يحترق الانسان من الا يشعر بشيء » وان الخطيئة عنده هي نداء محبة ضل طريقه ، كما ان النفس تميل على نحو طبيعي ، في فلسفة افلاطون ، نحو الخير والحق والجمال فلا تختار الشر والقبح الا عن جهل ، فكذلك يرى مورياك ان الانسان انما ينحرف عن ينبوع المحبة نتيجة جهله الطرق الصحيحة التي تفضي به الى الرب ، وهذا سر اهتمامه باولئك المعذبين المتألمين ، وشفقته عليهم ، ورثائه لهم ، فهم بالنسبة اليه اشبه بالحمل الضال الذي يترك الراعي القطيع كله بحثا عنه.

وان صح ان عالم الكاتب الفكري وفلسفته ومفهومه للحياة تفرض عليه تكنيكا فنيا كما يقول سارتر فما الاسلوب الذي لجأ اليه مورياك ليعرض علينا عالمه هذا ؟

يقول مورياك : « على كل كاتب روائي ان يبتكر التكنيك الفني الخاص به ، تلك هي حقيقة المسألة فكل رواية جديرة بهذه التسمية تشبه كوكبا آخر ، سواء كان كبيرا ام صغيرا له قوانينه الخاصة به كما ان له نباتاته الخاصة به ،وكائناته الحية التي تعيش فيه . وعلى هذا فان التكنيك الفني عند فولكنر هو احسن تكنيك يمكن ان يرسم به عالم فوكنر ، وكابوس كافكا انتج اساطيره الخاصة التي جعلت منه شيئا قابلا للفهم ... (٢٩) » .

ان معظم روايات مورياك هي روايات ازمات كما رأينا ، ولهذا فقد كان من الطبيعي ان يبدا رواياته من منطلق الازمة ، صنيع راسين في معظم مسرحياته ، ثم يحمل الابطال على تذكر ماضيهم والعودة بذاكرتهم الى الاحداث الاساسية الهامة من حياتهم . وقد لجأ مورياك في كثير من رواياته الى هذا الاسلوب الفني ، في رواية «تيريز ديكيرو» مثلا حيث تبدا الرواية بانتهاء محاكمة تيريز فتسترجع هذه ماضيها كله في طريق عودتها الى ارجلوز. كما استخدم هذا الاسلوب نفسه في رواية « صحراء الحب » اذ يقوم الشاب ريمون كوريغ الذي يلتقي بماري كروس المراة التي احبها هو ووالده بتذكر ماضيه وماضي ابيه معها . وقل الامر نفسه في رواية « اقدار » ولطالما لجأت السينما الى هذا الاسلوب في الدخول المفاجيء الى الموضوع دون التمهيد الكافي ، ثم الرجوع الى الماضي .Flashback

وقد يعمد الى اسلوب السرد او الى اسلوب المذكرات كما فعل في رواية « عقدة الافاعي » لانه اراد ان يرينا تطور بطله فكانت هذه الطريقة خير طريقة تضع القارىء في صميم نفس البطل . وان معظم روايات مورياك قد كتبت بتصميم واحد يقوم على حمل القارىء على حضور مأساة داخلية تجري في نفس البطل .

منح فرانسوا مورياك سنة ١٩٥٢ وقد بلغ السابعة والستين من العمر جائزة نوبل للآداب ، فجاءت تقديرا عاليا لادب هذا الكاتب الكبير ، ولقد جاء في بيان اكاديمية استوكهولم انها منحت مورياك جائزة نوبل :

« لتحليله العميق للنفس الانسانية ، وللقوة الفنية التي عبر بها عن الحياة الانسانية في رواياته » .

حلب **جورج سالم**

# صدى الرصافي بلبنان وادبائه

**بقلم الاب يوسف سعيد**

***

لبنان جنة منتقاة ، في ارض الاحياء . ومربض الخلود على سفح البحر المتوسط . لؤلؤة في عقد الشرق ، ومنابع يستدر منها الوحي ، وتنث سماؤه طاقات من زخم الالهام. وعلى روابي ذلك الجبل الاخضر ، فكر ممرع ، وحياة شاعرية فذة ، وعبقرية كامنة تتفتح ازاهيرها على عبقرية نادرة ، وشذى النبوغ في كل جيل يسري ، ولا تنقطع صلة سريانه .

فمن زار لبنان ، وعاد الى موطنه ، ترك هناك عذارى احلامه وطيب ايامه ، العبقة ، الخالية من الاحزان والاشجان

حب لبنان يتقاسمه اثنان

لبناني سواء كان في دار الثنائي ام لم يكن .

ووافد عليه لبضعة ايام ، او اشهر ، يتركه وكأن لبنان ، قطعة من قلبه ، ونقطة من دمه

ومعروف الرصافي الذي احب لبنان ، حبا عميقا ، حتى ملتقى نهاية جذور المحبة ، واعلن ملء اخلاصه لسكانه ، وترع خمرة المودة ، مع صفوة ادبائه ، وشعرائه ، ابى الا ان تتفجر شاعريته على حب لبنان ، وجماله .

اسمعه يناجيه بهذه القصيدة (١) بعد ان يتصوره غادة تميس بعواطف جياشة ، وجمال فتان ، وحب دفين كامن ، يسربلها وشاح الخيلاء وينتهي الى القول في كيان لبنان :

**لبنان تفعل بالحياة جنانه فعل الزلال بغلة الظمآن**
**وترد غصن العيش بعد ذبوله غضا يميد بفرعه الفينان**
**فكأن لبنان عروس اذا غدا يزهو بنشر غدائر الاغصان**
**وكأنما البحر الخضم سجنجل يبدي خيال جمالها الفتان**
**جبل سمت منه الفروع واصله تحت البسيطة راسخ الاركان**
**تهفو الغصون به النهار وفي الدجى تهفو عليه ذوائب النيران**
**وترى النجوم على ذراه كأنها من فوقه درر على تيجان**
**لله لبنان الذي هضباته ضحكت مغازله مع الوديان**
**يجري النسيم الغض بين رياضه مرخى الذيول معطر الاردان**
**جلت الطبيعة في رباه بدائعا تكسو الكهول غضاضة الشبان**

هكذا يسير الرصافي ، في وصفه الرائع ، فيجد في لبنان فردوسا خطته انامل الله في الارض ، والرصافي شاعر يحلق تحليق النسور في الفضاء اللامتناهي ، ليجذب افكاره من سديم العلى ، ليخط تلك الالهامات زخما معطرا بالخيال ، وزفرات الوحي تنطلق من شاعرية اصيلة ابت ان تحيا على الارض لتكون ترابية ، بل سمت تلك الشاعرية الى اعلى الاعالي ، كيف لا وهو في وصفه في وادي الفريكة مسقط راس امين الريحاني احد فلاسفة لبنان والعرب(٢).

وقد كانت هناك مودة ادبية وثقى تربط الرصافي مع امين الريحاني ، وقد اشار الى هذه الصداقة الاديب رفائيل بطي في مقاله الذي نشره في مجلة الاديب يوم توفي الرصافي عام ١٩٤٥ ، وذكره في مجموعة الخطب والقصائد العصماء التي القاها الرصافي في حضرة الريحاني يوم زار العراق (٣) .

وخريدته التي نحن بصددها الآن انشدها الشاعر في وادي الفريكة مدعوا من قبل امين الريحاني . .

قل لي اين منبر الشاعر ؟ اقول لك ما نوع قصيدته ، فالشاعر الذي يقف على رابية جرداء ، وامامه صحراء قاحلة تجيش عاطفته عن انطلاق لا يحد فيصف رحابة الصحراء ، وحدود السراب ، الذي احتال على العين ليكون حاجزا وحدا لها ولكن خيال الشاعر يطفر كالايائل من فوق تلك الحواجز ، ويجد في رابيته التي ينشد من اعاليها النتوء البارز في صدر الصحراء ، وهي آخر واول زينة تتزين بها تلك الصحراء القاحلة .

والشاعر الذي يحتضنه وادي الفريكة في لبنان، وتحيطه الطبيعة اللبنانية الفاتنة ، الخضراء، وتتواضع امامه الوهاد، وتسمو قمم الجبال سامقة وتمتد الخضرة في كل بقعة ، والبحر الذي لا يحده البصر ، ويحصره الخيال ، منمق الموج مختلف الركز ، متقلب الحركة واللون ، كل هذه الحركة تحيل شاعرنا الرصافي انسانا آخر . يستطيع ان يحلق بعيدا بعيدا الى اغوار الجمال ، ويصعد الى ذروة النجوم ، ويحافظ على كيانه وهو بين اصدقائه وخلانه في مرتع لبنان الرائع تحت افياء اغصان وارفة من ظلال اشجاره ذات الاماليد المياسة .

وتعد قصيدة الرصافي في « ذكرى لبنان » من اروع قصائده الوصفية ، فيبلغ ذروة الوصف عندما يمثل ربيع لبنان الاخضر ، ونظرات جبل صنين الى هذا الجمال . فينظر ويرمق الربيع الدائم . وفي نظراته حسد وغيرة (٤) فيقول :

**وكأن صنينا اطل مراقبا يرنو لهن بمقلة الغيران**

ثم يوجه نداء حارا الى اللبنانيين الذين هاجروا لبنان ، وتركوا هذه الخضرة الدائمة ويشدد على عزائمهم في العودة الى لبنان ، وليقتدوا بالشعب الياباني الذي استطاع ان يكون نفسه ، ويناديهم بالعودة والتمسك بمبادىء المحبة بعضهم لبعض حتى يقول لهم :

**امهاجري لبنان طال غيابكم اين الحنين الى ربا لبنان**

واسمعه متمما صرخته الى شعب لبنان (٥) .

**هذي مواطنكم تريد وصالكم وتئن شاكية من الهجران**
**افترحمون انينها ام انتم لا ترحمون انين ذي الاشجان**
**اني ارى هجر الرجال بلادهم شيئا يضيع كرامة البلدان**
**واضاعة الوطن العزيز جناية ضل الزمان بها من الغفران**
**من كان ذا جدة فاجر بمثله الا يضن بها على الاوطان**

وله قصيدة اخرى في وصف لبنان عنوانها « لبنان » وقد علقت على هذه القصيدة جريدة الاحرار اللبنانية (٦) فقالت : « ولع الرصافي بلبنان ، وولع لبنان بالرصافي

فجاءت قريحته بقصائد صافية العاطفة كسماء هذه الربوع عذبة كمائها ، عليلة كهوائها » .

وقد قال في مطلع القصيدة :

| | |
|---|---|
| ان الحسن في لبنان اينع غرسه | وقارب حتى امكن الكف لمسه |
| اذا ما رأته عين ذي اللب مشرفا | تنزت به في مدرج الحب نفسه |
| نكا مغرسا فالذام ليس يؤمه | وطاب جنى فالسوء ليس يمسه |
| قسا صخرة لكن تفجر ماؤه | فلان بكف العيش منه فجسه |
| لقد لبس الجو اللطيف فزانه | بما فيه من غر المحاسن لبسه |
| ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه | وفي الظهر لم تلفحك بالحر شمسه |
| وقد عبدت للسالكين طريقه | وحرر اهلوه وبورك انسه |

اتوقف الآن ، لاقول كلمة مقتضبة عن هذه القصيدة .

ان الرصافي لم يكن مع لبنان شاعرا مر عليه مرور الكرام ، بل قد جاب في قمم روابيه ، وارتقى سوامق جباله ، وهبط وهاده ، واستظل تحت افياء اشجاره القائمة في منحدر سفوحه . والقصيدة التي نحن بصددها، والحق ان القصيدة التي نحن بصددها عن اي الابيات يضعها ، واي منها يحذفها . فهي خريدة نادرة عصماء . وقلما توصل شاعر مثل الرصافي بهذا الوصف . اذ يرى في لبنان مهرجان عرس حافل ، وغرام ابدي فيرى في انحناءات الجبل ، مودة خالصة يوديها الى سهل ممرع . ونظرات من جبل شامخ نحو جبل آخر زواج من نظر ، وشوق لا اتحاد فيه ، رغم القرب . وفيهما عشق مبرح ولست بحاجة الى وصف هذا الاقتران طالما شاعرنا يحدثنا عن هذا الالتقاء الدائم :

| | |
|---|---|
| كأن جبال المتن حدبة عابد | هوى ساجدا شكراً وبيروت راسه |
| يقال عن الاضواء في جوف ليله | ببيروت اذ يغشى من الليل دمسه |
| تزوج صنين الفتى بنت جاره | فاضاء ببيروت الوسيطة عرسه |
| ونبع الصفاء والقاع فيه كلاهما | من الحسن ملأى بالبدائع كاسه |
| جرى الماء في واديها متدفقا | بانشودة الاطراب تنطق خرسه |
| وان تزر الشاغور يوما تجد به | من الحسن ماقد خص بالفضل جنسه(٧) |

هذه تحليقة في سماء الشاعرية الخصبة ، لا يدانيها مداني ، فتأمل هذه الابيات واعد قراءتها ، ففي الاعادة على هذه الابيات روعة وجلال ، بل انك تترع سلافة معتقة ، عصرتها الارواح الهائمة في سماء لبنان ، لتترعها النفوس المرهفة كؤوسا دهاقا ، لتسمو عن حطام عالمنا الى عالم علوي ، تتدفق منه ميازيب الطلى ، والندى ، وتنثشاقاتها الغيث . وتنفث ، وتتنفس نسيما من رحيق العطر السماوي ، والنشوة الملائكية ولبنان في نظر الرصافي جنة مصغرة لفردوس الملكوت . فكأنني بالرصافي يقول لمن يحسده على هذه المحبة التي يوليها لبنان ، ويتفانى في سبيله . ويقول لهم في نفس القصيدة :

| | |
|---|---|
| فيا لائمي في حب لبنان انني | احس لعمري منه ما لا تحسه |
| اذا كان لبنان كليلي محاسنا | فلا تعجبوا من انني قيسه |
| وان تحمدوا منه الايادي فانني | انا اليوم من بعد الايادي قسه |

انما الشعراء نظرتهم الى الجماد ، في الطبيعة ، وما يتحرك منها، ويجول في سمائها ويحط على افنان اشجارها، وهي نظرة خاصة لدى الشعراء انبياء الفكر ، ومستودع الالهام ، ولهذا يقول الرصافي « احس لعمري ما لا تحسه» لانه يجد في هذه البقعة صومعة آمنة للنفس ، ويشعر الشاعر بانه الآن نسر تجسم ظله ، ليحلق بعيداً في عالم لامتناهي لا تدرك مداها عين اللحم . بل اعين الروح اللطيفة المنطلقة الى ما وراء المحدود ، لتكون ضيفة وراء عوالم اللامحدود ، خلف نهاية الافق البعيد ، لتشاهد الشمس تضم النور تحت جناحيها ، وتفسح المجال لجناحي الليل ليحلقا في عالمنا ، ويحجبا النور عن الانظار .

ولم يكتف شاعرنا بهذا . بل يجعل من لبنان طبيبا مداويا . ويختم قصيدته العصماء بهذه الابيات :

| | |
|---|---|
| كتبت كتاب المدح في وصف حسنه | فضاق ولم يستوعب الوصف طرسه(٨) |
| فما كل قالت به شعراؤه | سوى ثلث ما يحويه بل هو خمسه |
| الا ان لبنان جوا مرووقا | اذا ما شفى المسلول لم يخس نكسه |

اما قصيدته التي القاها في مدينة زحلة (٩) فهي من عيون الشعر العربي ، وشاعرنا في موقفه هذا يحلل لنا نفسيته المضطربة التي كانت تأبى الا الادلاء بالصراحة المتناهية ، كما عرف عنه ، واما المناخ الشعري فينحو فيه نحو اسلوب المتنبي . ذلك الاسلوب الذي تقرأ البيت ، وكأنك تجد وراء كل بيت زوبعة هوجاء ، وعاصفة تزمجر

(١) طالع ديوانه الكبير طبعة مصر ١٩٥٣ ص ٢٣٨ (٢) ولد امين الريحاني سنة ١٨٧٦ - ١٩٤٠. وهو اديب في اللغتين العربية والانكليزية ويعد الريحاني اول من نادى بالوحدة العربية ، وترك الاحقاد ، واول اديب غطس بكل يراعته ليكتب الشعر المنثور ( طالع ما كتبه عنه مارون عبود في مجلة اقرأ المصرية عدد ١٣١ نوفمبر ١٩٥٣ ) (٣) جمعها الاديب رفائيل بطي في كتاب وعنوانها « الريحاني في العراق » واقرأ مقال بطي في الاديب ١٩٤٥ بعنوان « الرصافي واصدقاؤه على البحر المتوسط » (٤) طالع وصفا شاملا دقيقا لهذا الجبل صنين في الاجزاء الثلاثة التي الفها الاديب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة بعنوان « سبعون » وهي حكاية عمره (٥) ديوان الرصافي ( باب الوصفيات ) ص ٢٤٢ (٦) جريدة الاحرار في ٢٦ آب ١٩٣١ (٧) ديوان الرصافي « باب الوصفيات » ص ٢٤٣ (٨) نفس المصدر ص ٢٤٤ (٩) اقيمت حفلة تكريم للرصافي والريحاني . فانشد الرصافي هذه القصيدة ١٩٢٣ في زحلة « ديوان الرصافي » ص ٧٨ (١٠) عقد الاديب العراقي المعروف المرحوم رفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ، فصلا جامعا شاملا عن صداقة الرصافي مع اللبنانيين نشرته مجلة الاديب ص ٣٦ اظنها عام ١٩٤٥ يوم وفاة الرصافي ، بعنوان « الرصافي وزملاؤه على ساحل الابيض المتوسط» وحدثنا عن اصدقاء الشاعر مع وضع صورة نادرة لبعضهم اخذت عام ١٩٢٥ وفيها الدكتور اديب مظهر ، وفيلكس فارس ، والاستاذ يوسف الحاج (١١) كما كتب في هذا الصدد الاديب المعاصر صديقنا وحيد الدين مقالا ضافيا في مجلة الحكمة عدد اذار ١٩٥٧ ، واشارت اليه جريدة الجريدة اللبنانية بتاريخ ١٢ - ١١ - ١٩٦١م ونوهت عن المقال جريدة الزمان البغدادية بتاريخ ٢٥ - ١١ - ١٩٦١م (١٢) انظر ديوان الرصافي ص ١٤٢ و ٤٢٥ و ١٥٣ و ١٥٦ و ٢٥٧ و ٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٣٥ و ٥١٣ اما ما وصفه من المدن اللبنانية فهي زحلة ص ٧٨ وبيروت ص ٢٥٢ وجو بيروت ص ٥٢٤ (١٣) يقصد هنا والدة جبران انظر ص ٣٢٨ و٣٢٩

وتصفر ، وتمر بموكب سريع ، قوي خاطف . اما ما يقوله في هذه القصيدة فهو :

| | |
|---|---|
| ذريني اذر في هضب لبنان اربعا | تعالى بحيث العز مرخى الضفائر |
| بحيث ارى تلك الليوث خوادرا | تسارق الحاظا عيون الجاذر |
| ليوث اذا ما عبست في ملمة | تبسمت الدنيا تبسم ناصر |
| والقت جيوش الفاخرين سلاحها | اذا خفقت راياتها بالمفاخر |
| فاكرم بلبنان مقرا لنابه | ومأوى لمنكود ومهوى لجائر |
| الا انما لبنان في الارض عاهل | تبوا عرشا من جليل المآثر |

ويقول عن زحلة :

| | |
|---|---|
| وزحلة في لبنان تاج راسه | قد ازدان من ابنائها بالجواهر |
| وما هي الا روضة انبتت له | ازاهير من تلك الحسان الغرائر |
| ازحلة اني تارك فيك مهجتي | تعطيك من بعدي محبة شاكر |

ثم يصف أهل العلم من اللبنانيين فيقول :

| | |
|---|---|
| وكم في ربا لبنان من ذي وفصاحة | مجيد بيوم الحفل قرع المنابر |
| ومن اهل آداب كشارقة الضحى | ومن اهل علم كالبحار الزواخر |

## صلته بادباء لبنان

اكثر الادباء اللبنانيين الذين تخطت شهرتهم حدود لبنان . واشير اليهم بالتجلة والبنان ، لهم صلة اصرتها قوية جداً مع الرصافي (١٠) وقد ذكرهم المرحوم رفائيل بطي في المقال الذي كتبه ونوهنا عنه ، في هذه الحاشية وهم ندرة مطران ، محي الدين الخياط ، نور الدين بيهم ، فوزي باشا العظم ، وجبر ضومط ، والريحاني ، وجبران ، وسليم سركيس ، ومحمد الباقر ، وفيلكس فارس ، وعادل ارسلان ، وصلاح اللبابيدي ، وعفيفة صعب ، ونجلاء ابي اللمع ، ونظيرة زين الدين ، ولا ننكر ان بعض هؤلاء الادباء من اصل سوري (٢) وبعضهم كتب عنهم الرصافي ولم يعرفهم امثال جبران خليل جبران .

واليك القصائد التي خص بها لبنان وادبائه .

هذا وقد انتخبت قصيدة عصماء قالها الرصافي بحق جبران خليل جبران واليك بعض فقراتها :

| | |
|---|---|
| تفاوح الطيب من اردانه عبقا | كما تفاوح ازهار ببستان |
| تستخلص النفس من فحوى ملامحه | ان الغرام الذي يخفيه روحاني |
| ابصرته واقفا يبكي وادمعه | توحي الى كل قلب وحي احزان |
| يبكي والحان موسيقاه مطربة | تهتز منهن ارواح بابدان |
| يبكي فيرقص عقد الدمع منتثرا | بغير وزن واحيانا بميزان |

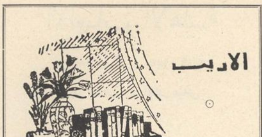
وقال في ممات جبران :

| | |
|---|---|
| فقلت لم يفن جبران بميتته | من خلف ابنا كهذا ليس بالفاني |
| بل اصبحت بابنه ذكراه (١٢)خالدة | ما دام لبنان ماهولا بانسان |
| اني ارى روح جبران مرفرفة | على الربا الخضر من جنان لبنان |

هذا هو شاعر العراق ، الذي عقد فصلا شاملا من محبة لبنان ، والى هنا نتوقف راجين عزا ومجدا للعراق الحبيب ومزيدا من المعرفة والعلم ! ومتمنين للبنان انطلاقة جديدة في رحاب العلم ، والجمال للجبال التي حباها الله بنعمته .

كركوك — العراق　　　　الاب يوسف سعيد


# الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

**الاشتراك العادي :**

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

**اشتراك الانصار**

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ (Dir : 223819)
المنزل ٢٢٥١٣٩ (Dle : 225139)

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

**مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨**

بيروت — لبنان

●

**صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول**
**البير اديب**

# الالعــاب الاهليــة

## في بادة دير الزور حاضرة الفرات

بقلم المحامي عبد القادر عياش

* * *

الالعاب : حاجة اولية من حاجات الانسان ومقوماته في جميع ادوار حياته وفي جميع مراحل حضاراته ، اولاها الانسان وما يزال يوليها عناية بالغة فردا وجماعات وحكومات ، تبذل في سبيلها ومن اجل ترقيتها وممارستها وتنظيمها الاموال الطائلة والجهود الوفيرة ، لما لها من الفوائد المتعددة في حياة الانسان والامة وفي حياة الشعوب قاطبة . حفلت لغات العالم باسماء اللعب ، وصاغ المثالون التماثيل للاعبين المبرزين وخلد الشعراء اسماءهم ورسم الرسامون صورا لهم وارخ المؤرخون للالعاب الاولمبية في اليونان القديمة ، واحيت الشعوب مجتمعة تلك الالعاب في دورات عالمية كل اربع سنوات في عاصمة من العواصم الكبـــرى .

تجاه الالعاب العالمية والتي كانت في الاصل العابا خاصة لبعض الشعوب ـ توجد العاب أهلية تمارس في المناطق. وتتميز العاب كل منطقة عن العاب المناطق الاخرى وهذه الالعاب الاهلية في المناطق السورية لها اهميتها في حياة سكان المنطقة : انها تمثل اعمال الشعب اليومية وكفاحه مع الطبيعة وحيواناتها ، كما تقصد الى تربية الشعب تربية صارمة وتعوده تحمل المكاره وتعوده الصبر على البلاء . وتفتق اذهان ابنائه وتشيع فيه روح التعاون والتعاضد ، فضلا عن تقوية اجسام ابناء الشعب واخذها بالرياضة وفضلا عما في هذه الالعاب من الترفيه والتسلية فهي لذلك تقتضينا ان نهتم بالالتفات اليها ونعنى بتسجيلها وتحليل الفاظها ووصف حركاتها والبحث عن اصولها ومقارنتها مع العاب المناطق الاخرى بل مقارنتها مع العاب الشعوب في حاضرها وقديمها . انها في طريق الزوال لمزاحمة الالعاب العالمية لها من جهة ، ولان في الناس نزوعا الى التنكر للقديم . وهي من صميم حياتنا الاجتماعية تتركز فيها نواح فولكلورية كثيرة ، واذا ما عنينا بهذه الالعاب وابرزناها بما ننشره عنها ، فقد نرى كثيرا منها جديرا بالابقاء والتهذيب والتنظيم . وقد نجعل لالعاب كل منطقة مهرجانا خاصا نحتفل به في وقت معين . وعندي ان الالعاب بقدر ما تكون اهلية يكون ابتهاج الشعب بها اوفر وانتفاعه بها اقرب . والالعاب الاهلية مثل التراث الادبي الشعبي ينبع من اعماق الشعب ويعبر عن روحه ، ولكننا لا نحفل لا بهذا ولا بذاك .

مارس الديريون كبارا وصغارا ، رجالا ونساء حتى مدة قريبة العابا كثيرة يبلغ عددها عشرين ومائة . وقد لا يصدق ديري هذا الرقم اذا سمع به لاول وهلة او يرى فيه مبالغة فلا عجب اذا شك غير الديري بهذا الرقم للالعاب الاهلية بدير الزور حاضرة الفرات . الرقم حقيقي عرفته باحصاء العابنا بدير الزور لعبة فلعبة .

لكل فصل من فصول السنة العاب خاصة ، ولكل وقت في اليوم العابه، وللصبيان النصيب الوافر من عددالالعاب، يلعبون في كل وقت، داخل البيوت وفي الشوارع والازقة، وفي الضحى والاصيل وفي الليل ، في القمرة والظلماء ، في الشتاء والصيف ، في البرية وعلى شاطىء النهر وفي لجته وفي قاعه . ويرسلون طائراتهم الورقية الى الفضاء بذيل طويل ينظم توازنها ، وتخفق صفحتها بورق سميك صغير مشدود بخيط بطرفيها يرسل صوتا يسمعه الصبيان فيبتهجون لسماعه كما لو كان اذاعة ترسلها الطائرةالورقية.

لا يحد الاباء في دير الزور من حرية ابنائهم وتعلقهم الشديد بالعابهم العديدة المتنوعة ، يفسحون لهم المجال ، ويفرحون لفرحهم بالعابهم التي تستغرق منهم طوال اليوم وقسما كبيرا من الليل .

والاباء الديريون شديدو الحنين لالعاب الصبا ، فقد نعموا بها زمنا ، ولذلك يحرصون على ان ينهل ابناؤهم من نفس المورد وان لا تفوتهم هذه المتعة ويرتاح الاباء الديريون ويسرون لمراى ابنائهم يمارسون العابهم . ويعينونهم عليها، بما يهيئونه لهم من ادواتها ووقتها ، وبرضائهم عنهم وعنها. وكثيرا ما يشارك الاباء ابناؤهم بلعبهم ، بهذه المناسبة يعودون الى ايام الصبا الحافلة بالالعاب المسلية اللذيذة والخالية من الهموم والمليئة بالرؤى والاطياف البهيجة .

عبر الشاعر الديري محمد الفراتي عن حنين مواطنيه الى ايام الصبا في قصيدة بعنوان (صور من طفولتي) وصف بها بعض العاب صبيان دير آلزور منشورة في ديوانه الاول بقولـه :

**ذكريات الصبا تقطع احشا ... ئي فآه آه من الذكريات**
**لم اكن ما حييت يوما لانسى ... عهدها المستفيض باللذات**

الشعوب الفنية بالعابها والحفية بها ، غنية بوفرة ابنائها وغنية بصحة اجسامهم وصحة عقولهم ، وغنية بمواهبهم وكفاءاتهم .

يلعب صبيان الدير في الشتاء عدة العاب في الطرقات في الليل ، لا يقعد بهم البرد او المطر . من هـذا اللعب . لعبة : ( منو على الدايرة ) . يطوف الصبيان بالبيوت لجمع كمية من الحطب منشدين عند كل باب دار نشيدا خاصا حلوا ، ثم يوقدون الحطب المجمع في وسط الطريق ، ويدورون حول لهيب النار ، ويقفزون من فوقه كأنهم يؤدون طقوسا من عبادة النار واللعبة مأتية من البادية اذ يشب البدو النار وسط البادية يصطلون بها . وقد تكون اللعبة فارسيـة الاصل .

وفي داخل البيت يلعبون حول الموقد المشبوب لعبة ( قارة قرميدة ) ولعبة ( خريجي هودي ) ولعبة ( على

الشوقلة ) . ولكل من هاته الالعاب الفاظ خاصة تؤدى في نغم عذب في اذان الاطفال ، صقلته السنتهم على مر السنين حتى صار له وقع مستحق في اسماعهم . وهم ابدا يواصلون اوقاتهم باللعب وبالاستماع الى قصص الجن من الجدات او القرويات الضيفات . ثم ينامون ملء جفونهم نوما عميقا لذيذا . وما أن ينهضوا من نومهم صباحا حتى يستأنفوا لعبهم في الطرقات اذا لم تكن الكتاتيب قد احتوتهم ، على انهم كثيرا ما يتمردون عليها فيهربون الى البرية والبساتين غير مبالين بما ينتظرهم في الكتاب في اليوم التالي او الذي يليه من عصى الملا او الخوجة اوفلقتهما او حجزهم في الكتاب طوال اليوم بلا طعام . وكثيرا ما تشغل ليالي الصبيان بالاجاجي ( الحزورات ) تلقى اليهم من الكبار رجالا ونساء ولا تخفى فوائدها .

يلعب الشبان والرجال في ليالي الشتاء في البيوت لعبة الزهر ، وتتألف من تسعة اقداح صغيرة من النحاس توضع داخل طبق من القش المقير، ويوضع خاتم تحت احدالاقداح التي تشبه الفناجين وينقسم السامرون قسمين وتلعب اللعبة بحماس وتتطلب فراسة . ولذا يتولى الكشف عن الخاتم شخص ذكي واللعبة لقاء رهن من الفواكه او الثمار المجففة او غيرها ولها اصولها وتلعب كل مرة في بيت من بيوت الرفقة . واسمها مأخوذ من مشابهة اقداحها للزهر، وهي قديمة في دير الزور وتوجد في انحاء من العراق وسوريا .

ويلعب الكهول والشيوخ في كل الفصول وخاصة في الشتاء في البيوت لعبة الشطرنج وهي قديمة في الدير . والديريون ماهرون فيها . وتكاد تكون شغل الشيوخ كما يلعبون العابا اخرى هي النرد والدامة والمنقلة والادريس . وقلائل يلعبون ( الوزود ) او لعبة الكعب وهي لعبةقمار لقاء نقود يقوم فيها الكعب مقام الزهر . ولعل لفظة الوزود مأتية من لفظة ( الزود ) وهي في القاموس : زدي الجوز ، وبه لعب ورمى به في المزداة للحفيرة وهي لعب من الصبيان بالجوز والمزداة موضع ذلك . وزدا الصبي الجوز وبالجوز يزدو زدوا اي لعب ورمى في الحفيرة . وتلك الحفيرة هي المزداة .

وفي الربيع يلعب الشبان والرجال العابا كثيرة متنوعة ، يلعب الصبيان في الليالي في الطرقات ، الضايع ، الشكام ، عجيربة يا شيحه ، اربع قرن ، تنور خراب ، طق العجل ، قينة قينة ، اغلى صجن او اغلى صين ، واحد قوق ، دك ذويب على الغنم ، مدة مدة سيفي . ولكل منها الفاظ خاصة متابعة يرددها رئيس الفريق اللاعب ، ويدخل الركض في كل لعبة وتتطلب الانتباه والمهارة وخفة الحركة والاحتراز ، والتضامن . فابن الشعب الذي اوجد هذه الالعاب لم يوجدها عبثا ومضيعة للوقت وانما رمى من ورائها نفع ابناء قومه . وفي النهار يلعبون بالمصراع والمدنية والناعور ، والوغواغة . والبزازة في الطرقات . كما يلعبون لعبة الحرب في الطرقات وفي البرية واداتهم المقلاع ينسج من الصوف او القطن ، ويدخل في بعض المقاليع الجلد يكون كفة ، كما يدخل الحرير في طرفه على هيئة شراية ، يجلد بها صاحبه الارض ليخرج صوتا لارهاب الخصم والحرب تقع بين صبيان حارة واخرى.اما قذائف المقلاع فالحجارة، وما اكثرها في الطرقات حينذاك حيث لم تكن معبدة وحيث تمتلىء البرية بالحجارة . وكم ادمت تلك الحجارة منوجوه وقلعت من عيون وحطمت من زجاج نوافذ البيوت وروعت المارة بالطرقات واوقفتهم من متابعة سيرهم حتى كانوا يستعيذون بالله من هذه الشقاوة المتناهية وهذا العبث المنكر ، وكثيرا ما استنجد الاهلون بالشرطة .

ويلعب الشبان في البرية لعبة التاز ، واداتها عصاة متوسطة وكرة من الخروق يحكم لفها وتخيط بخيط من القطن يكون اللاعبون فيها فريقين يتركز احدهما موقتا عند المحج وينتشر افراد الفريق الثاني امامه يتلقوا الكرة من الجو . واللعبة تتطلب سرعة في الركض وانتباها ومهارة ولعبة ( شور جله ) والحورى ، والحاح ، وتمارس في الطرقات نهارا او في الليالي المقمرة . وهنالك العاب القفز وهي متنوعة منها اول عبرة . واول دلكة .

والعاب الكعاب ، وهي كعاب الخراف . والعاب الكعاب متنوعة تلعب في الربيع والصيف في الطرقات وما من صبي الا ويحصل على كمية من الكعاب تمدهم بها كثرة الخراف التي كانت تذبح وتستهلك في المدينة واللعب بالكعاب قديم عند العرب وفي المخصص تجامح الصبيان اي رموا كعبا بكعب حتى يزيله عن موضعه . قال صاحب العين جبخوا بكعابهم اي رموا بها لينظروا ايهم يخرج فائزا. وفي اللسان جمحوا بكعابهم كجبخوا . وتكامح الصبيان بالكعاب اذا رموا كعبا بكعب حتى يزيله عن موضعه . وفي المخصص قال صاحب العين ــ الشذق ــ الكعب الذي يلعب به . وارتب الغلام الكعبة ورتبه ــ اشبته ــ والعاب الكعاب لا تخرج عن ازالة الكعب عن موضعه للفوز به . ولكل لعبة منها اسم ومصطلحات . ولعبة الجاقول يلعبها الصبيان والكبار في الربيع وميدانها ارض مقعرة قليلاوهي غالب ما تتوفر في البرية وادتها الكلة وهي كرة صغيرة من الصوان الملون تهيا بالنقر وتصقل داخل قالب من الاجر ، تقذف باصابع اليد اليمنى لتجري فوق الارض موجهة نحو كعاب او قطع من النقد المعدني الصغير ، فما مسته يكون كسبا لصاحبها ، يلعبها بضعة اشخاص معا .

وتلعب الصبيات لعبة العاج اي لعبة الدمى والعرائس وتصنع في البلدة ولعبة العاج تمثيل لحفلة الزواج . فالصبيات يزوجن عرائسهن ويجلوهن ويعددن لهن الثياب والاثاث . ولفظة الدمية والعروس غير شائعة وانما الشائع لفظة (العاجة) بمعنى الدمية . واللفظة قد تكون متأتية من العاج الذي كانوا يصنعون منه الدمى والتماثيل الصغيرة .

وتلعب الصبيات لعبةبيت بيوت،وغماية، وقعيدة،ومستراح

والقفز على الحبل والطابة والصقلق وهو عبارة عن خمس حصوات الواحدة بحجم البندقة ترمى على الارض ثم تلتقط منها بنظام وتقذف في الهواء ثم تتلقاها صاحبتها بيدها وتعاد العملية باشكال متباينة حتى بلوغ مرحلة معينة تتداول لاعبتان هذه الحصوات الخمس .

وتلعب العذارى والنساء في الربيع والصيف في الدور والبساتين والبرية لعبة الدورة بالتراب، تدس فيه النقود. ويقسم اكواما صغيرة بعدد اللاعبات ، وتختار كل واحدة كوما فما وجدت فيه من النقود فهو لها ، وتعاد العملية مرارا بمقدار ما ترغب اللاعبات من الوقت ، واللعبة محببة الى النساء الديريات ينفسن فيها عن ضيق حياتهن ولانها اللعبة الوحيدة التي يمكنهن ممارستها وهي لعبة نسائية محضة ، لا يلعبها الرجال قط . وهي لعبة قديمة من العاب القمار البدائية ، عرفها العرب القدماء باسم الانبوثة .

وتسبح الصبيات وبعض النساء في الصيف في وقت القيلولة في النهر بثيابهن لوحدهن أذ لا يعرفن المايو .

وما ان يقبل الصيف حتى يجعل الصبيان من نهر الفرات ومن ضفافه ورماله واشجاره ودغله وجزره ومباقله ميدانا واسعا لالعابهم الكثيرة التي تستغرق طوال نهارهم ،يسبحون فيه ويغوصون ، ويتزحلقون فوق زحلوقات يضعونها ( زحلقينة ) ويطمرون جسومهم في الطين والرمال ويلعبون الحيج والشمبوط ، والقفز ، ويتبارون بالغوص وعبر النهر وقذف الطبيخة الى النهر، ويغزون البساتين القريبة لسرقة الثمار ليتبلغوا بها ، لانهم لا يعودون الى بيوتهم الا مع اقبال الليل .

ومن العاب الصبيان : الفرارة والشوشاح ، القوس والنشاب ، النشابة ، الصرناية، والدودحانة وهي الارجوحة او المرجوحة . والقلابة ، والحصن الخشبية ولعبة الخيول المطهمة وهي عبارة عن عصى طويلة يمتطيها الصبيان وفي طرفها الاعلى الرسن واللجام . ولعبة الرماح المشرعة وهاتان اللعبتان تمثلان الفروسية والغزو مما يمارسه البدو في البادية وكان صبيان الدير يشهدون اعمال الفروسية ومرور الغزات ببلدهم على صهوات خيولهم حاملين رماحهم السمهرية ذات السنان المشنشلة ، والتي اذا هزها الغازي وهو يطارد فارسا احدثت صوتا يرعب الفارس المطرود ويقوض اعصابه فيستلم لمطارده ولعبة جوز الا فرد ، تلعب بالنقل ، ولعبة طرة الاياز بالنقد .

وقد مارس الديريون الى مدة قريبة سباق الخيل . وكانوا يعنون بتربية الخيول واقتناء الخيول الاصلية يتاجرون بها ويستخدمونها في تنقلهم بين بلدتهم والقرى المجاورة وكانوا يغتنمون حلول العيدين الفطر والاضحى ومناسبات الافراح : العرس والطهور فيجرون سباقات الخيل خارج المدينة .

وكان الديريون الى عهد قريب يدبكون رجالا ونساء معا الدبكة بمهارة وحماس على صوت الزمار والغناء من امراة او رجل ، وتطيب نفوسهم بها ويطربون لها طربا زائدا احلالا . وقد اضعنا الدبكة ويا للخسارة الجسيمة مع انها رافقتنا كضرورة اجتماعية واداة تنفيس وتسلية بريئة وحركات رشيقة . والشعوب تعتز برقصها الوطني وتحافظ عليه وتعرضه في البلاد الاخرى كأحسن دعاية لها . فلا نحن قرويون لنا رقصنا ولا اهل مدن يحلون الرقص محلا مرموقا بينهم كنا خليقين بان نبقي على الدبكة ونرقيها وننميها ، فانها تراث قديم نافع ، وهذه وزارة الثقافة عندنا تثبت الدبكة وعنيت بها واسست لها فرقة تؤدي دبكاتها وهذا هو رقص السماح يطل علينا من سنين من دمشق وحلب تؤديه فتيات الاسر المعروفة ويحظى بتشجيع الحكومة . نأمل ان يعم المدن السورية كلها الى جانب الدبكة .

ولقد اهملنا العناية بالخيل اهمالا تاما فخسرنا موردا اقتصاديا كبيرا وفقدنا العاب الفروسية .

واهملنا السباحة، فلا مسابح عندنا ولا زوارق وتجديف ولا نوادي لها . لقد سعدت بالالعاب الاهلية بدير الزور زمنا ويسعدني دوما مجرد ذكراها . ولكم كان يشوقني الاطلاع على العاب العرب القدماء لو انهم خلفوا لنا وصفا لالعابهم ولكنهم لم يتركوا في هذا الميدان سوى اسماء قليلة بعض العاب صبيانهم وردت في المعاجم اللغوية بشرح موجز لا يفيد وصفا ولا تعريفا ، فما أجدرنا بان نبادر الى وصف العابنا الاهلية وايراد كل ما يتصل بها من الفاظ وبواعث وظروف وبذلك نؤرخ لها ولحياتنا الحاضرة ليكون للاجيال الآتية مادة ومصدرا لا يفتقدونه كما نفتقد نحن اليوم اوصاف العاب العرب القدماء وحياتهم .

منذ سنين وانا استثمر الرغبة والحماس في نفسي لوضع كتاب في الالعاب بدير الزور يتضمن وصف كل منها والفاظها وميدانها ووقتها او تحليلها ومقارنتها بالعاب مناطق اخرى وبالعاب قديمة لتقديري لاهميتها واعجابي الزائد بعمقها وتنوعها وطرافتها . ولكنني لا اجد الوقت وكنت اتمنى لو كنت متفرغا لاخراج كتاب في الفولكلور عندنا .

تمنيت لو التقطت الجهات المسئولة عن الفولكلور اشرطة سينمائية لالعاب المناطق . وتمنيت لو اقامت كل منطقة مهرجانا لالعابها الاهلية يوما في السنة .

وتمنيت لو خرجت من كل منطقة كراسات عن تقاليدها ان لم تكن كتبا بتشجيع المسؤولين اذن لكانت لنا مكتبة في فولكلورنا تنمو سنة بعد سنة، ولو وجد فيها الفولكلوريون الاجانب مصادر يبحثون عنها لايجاد دراسة شاملة في الفولكلور نفيد منها بدورنا . اننا لم نقدم شيئا مذكورا بهذا الخصوص . وارجو ان تكون اعمال لجنتنا هي النواة الصالحة لذلك .

**المحامي عبد القادر عياش**
**عضو لجنة الفنون الشعبية في مجلس الفنون**
**دير الزور ـ سورية**

كانت الاشجار تبدو لهما ـ عبر البركة ـ خضراء مبتسمة . نظرت اليه ، ثم اشارت بيدها قائلة :

ـ انظر .. الا تعجبك هذه الاشجار ؟

ـ نعم انها تعجبني .

ـ الا تثير في نفسك شيئا ؟

ـ ماذا ؟ لا افهم

ـ كنت اتمنى ان ارى غابة

ـ بلدنا ليس فيه غابات

ـ هذا شيء مؤسف

ـ كلا .. انه لا شيء على الاطلاق

ـ ما معنى هذا ؟

ومرق طفل من جانبهما ، كان مرتديا بنطلونا احمر ، وقميصا ابيض . التفتت الى الطفل ، وداعبته قائلة :

ـ تعال .. تعال

توقف الطفل عن الجري ، وتأملها قليلا ، وكأنه يسألها ماذا تريد ؟ ثم يتابع جريه ، دون ان يلتفت اليها .

وسوت خصلة من شعرها ، كانت قد انحدرت على جبهتها ثم قالت :

ـ الجو جميل وهادىء

ـ نعم .. انه جميل وهادىء

ـ ولكن الا تحس بشيء غريب ؟

ـ ما هو ؟

ـ تمنيت لو ان هذا الجو صاخب

اطرق ، ثم تلفت حوله في ملل ، ثم قال لها :

ـ هيا نتمشى قليلا

ـ لا ارغب

ـ هل انت متعبة ؟

ـ بعض الشيء

ـ اذن هيا بنا نعود الى البيت .

في الطريق ، ظلت صامتة ،وحاول هو ان يتكلم معها ، ولكنها كانت شاردة ، لا تعي ما يقول . وفي البيت ، جلست بجانبه امام الراديو وهو يرسل الحانا موسيقية هادئة . وظل الصمت بينهما ، وحاول هو ان يخرجها مرة ثانية عن صمتها فقال:

ـ اريد ان اشرب شايا

ـ حاضر

قامت من جلستها ، وذهبت الى المطبخ ، فتبعها وظل واقفا بجانبها وهي تعد الشاي .

ـ بدا الشتاء

ـ كل سنة وانت طيب

ـ وانت طيبة .. مضى عامان على زواجنا .

ابتسمت ، وتلاقت عيونهما ، ثم قالت :

ـ عقبال مئة سنة

ربت على كتفها ، وانحنى يقبلها ، وحين رفع راسه ، لمح دموعا تنحدر على خديها .

ـ ماذا ؟! اتبكين ؟

ـ اننا وحيدان

ـ كلا اننا نشعر بالسعادة

ـ تمنيت لو استطعت ان انجب لك اطفالا .

# اطفال



بقلم مصطفى ابو النصر

ـ هذا شيء غير مهم

ـ وماذا ذنبك انت ؟

ـ انني كما تعلمين لا احب الاطفال

ـ انت تكذب

ـ كلا ، انها مسؤولية ، لست اهلا لها

ـ عذر لا معنى له .. الماء يغلي .

رفعت الابريق من على النار ، ووضعت ملعقة شاي فيه ، ثم وضعت الابريق مع فنجانين في الصينية . وسبقها الى الحجرة ، وجلست امامه تصب الشاي .

اخرج سيجارة واشعلها ، ثم رشف من الشاي وقال :




ـ انه متقن .. تسلم يدك

ابتسمت ، وارخت من جفنيها ، فداعبها قائلا :

ـ اتشعرين بالخجل ؟

ـ ممن ؟

ـ مني

ـ انت !!؟

ـ اذن لماذا تسبلين من عينيك ؟

ابتسمت ثانية ، وكانت بسمتها هذه المرة ، عليها مسحة من حزن دفين .

في هذه اللحظة، رن جرس الباب، فتبادلا نظرات متسائلة . وقامت لتفتح الباب . كانت اختها وزوجها واولادهما . ومرق الاطفال من تحت عناق الاختين .

في لحظات ، دبت الحياة في الشقة ، وعلا ضجيج الاطفال ، وهم يدورون حول الترابيزة في الصالة.

وتخيل ان أولاده ـ هو ايضا ـ يلعبون معهم . كم سيكون هذا المنظر جميلا ، وانتبه على صوت زوج شقيقتها يسأله :

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا شيء

ـ انت سرحان ؟

ـ كلا

ـ كيف حال العمل ؟

ـ الحمد لله

وعاد الصمت بينهما ، وقالت زوجته ، لتعد لهما الشاي ، وتبعتها شقيقتها . وكان صوت خافت ينبعث من قلبيهما عن شيء تسألها عنه دائما شقيقتها كلما زارتها ، الا انهما لم تنطقا بحرف .

وصرخ الاطفال في الصالة،واختفى احدهم تحت الترابيزة ، وحاول الآخران ان يمسكا به ، الا انه افلت من بينهما ، واندفع الى حجرة النوم، وصعد فوق السرير ، وجعل يقفز عليه قفزات متوالية ، فاعجبت اللعبة الجميع ، فاخذوا يهزون السرير ، صاعدين هابطين . وكانت اصواتهم تصل الى الاب ، فبدا خجلا وهو يقول :

# يسير وهو ليس كالاخرين

**مهداة الى الشاعر فؤاد الخشن**

عندما تتفتح ابواب السماء العظيمة
هكذا دفعة واحدة ، في الاجواء السحيقة
تتنابني الرعشة
كالتي لا يعيها طائر البحيرات في امسيات الشتاء
على تلك الجوانب الضحلة المثخنة برماح البامبو .
ابحث عن الذي اسميه الغريب التائه
لالقي بقلقي امامه ، كعصى الترحال المعقدة
في اعماق المحيطات عوالم كاملة منسية
في الاصقاع النائية جبال مدنيات مدفونة
هي بوضوح اعماقي .
الطيور عادت ليلا الى اوكارها ... الى صفارها
بدافع مجهول القلب
وامواج الريح تلحن أنغام النشيد الاعظم
سائحة كرائدة الفضاء بلا امل
لان الذي يحسها يموت
كمن يعيش اساطير الاغريق .
في قلب الغابات الموحشة
لا أسم اعظم من تسي تسي
انا ايضا اعرف شيئاً عن الطنين القاتل
عجبا ..؟
الليل هادىء السكنات
النجوم مثقلة الاجفان
الانغام بانسياب غدير الواحات
وكل ما يحيط بي
تماما كالكتب التي على طاولتي
بل كصورة خطيبتي ...

هكذا ... الجميع مرة واحدة في اللحظة المحسوسة ،
برغسون مونتاني جيد فولتير باسكال
كلهم سجنائي
اكممت افواههم دفعة واحدة
علني اجد معنى ان يكون العرش العظيم خاليا
ان افهم عناصر التكوين الاولى
للقلق للرعشة .
بعيدا ... من خلال تأملاتي ...
الشعور بالحب
الاحساس بالحبيبة ... بالاطفال ...
النهر المتصوف
الارض التي كانت غابة صفصاف
الابنية العالية ... الازهار المتواضعة
اللوحات الكبيرة ، التماثيل العملاقة
ومجموعات متضاربة الالوان لبشر ليسوا غرباء
حجوم صغيرة ... ومسافات كبيرة
ديدان الطين الحلقية الحمراء
والسنة اللهب الصارخة
حتى انياب الحيوانات الكاسرة
والاقوام والاجناس
كلها ... ومجموع اساطيرها
خطوط باهتة للهيكل الذي اسميه القلق .
مفهوم وبديهي انا انسان
وان لم يكن منذ البدء لي الراي في انسانيتي
اما وقد وجدت المكان الكبير ... خاليا
رغم الابعاد السحيقة المسحورة
فالرعشة ... والقلق ... الصورة الاكثر نقاء لي لصورتي .

**زكريا كايا**



ـ نحن نضايقكم باولادنا
ـ على العكس .. اننا سعداء جدا
ـ يوسخون الشقة .
ـ على اي حال .. انهم اطفال .

ودار بين الاربعة حديث ميت ، لا معنى له . ومضى الوقت ، ثم رحل الزوجان باولادهما . وحين ساد البيت الصمت ثانية ، نظر الزوج الى زوجته ، وتبادلا ابتسامة هادئة ، ثم ربت على كتفها ، وقبلها قبلة حانية .

**القاهرة** **مصطفى ابو النصر**

# مكتبة الاديب

## غابة الزيتون

**مجموعة شعرية ـ فؤاد الخشن ـ ١٤١ صفحة ـ منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ـ المطبعة ( ؟ )**

حب اللبناني لارضه عريق اصيل ، جرى مع الدم في شرايينه منذ فتح عينيه لنور الحياة والتاريخ ، وهذا الحب ، هذا الشغف هو الذي اهاب بشاعرنا الكبير فؤاد لخشن ، وهو الذي ناداه واوحى له عندما نظم تلك الرائعة الابداعية « غابة الزيتون » ، وللزيتون في لبنان مكانة قدسية لا تقل قداستها عن الارز ، وربما رجحت كفتها بما تعطيه من غذاء ونور .

ولا اقول ان « غابة الزيتون » من حيث الغزل بجمال الطبيعة فتح جديد في دنيا الشعر العربي ، فالشعراء العرب بين اقدمين ومحدثين تغزلوا بجمال الطبيعة ، ووصفوا الربيع وعرائسه ، ولكن هذا الغزل كان مقصورا على ما تتذوقه الحواس، مما تانس به العين واليد والانف.

اما « غابة الزيتون » فآيتها انها جمعت بين المحسوس وغير المحسوس، ولا اغالي ، ولا اعدو الحقيقة اذا وصفتها بانها فتح جديد في عالم الشعر العربي ، وانها تعبر اصدق تعبير عن الروح اللبنانية الهائمة بمحاسن الطبيعة ، وعن القلب اللبناني المشغوف بارضه وترابه ، وعن الوجدان اللبناني الذي يفتت الصخر استنباتا للخيرات ..

ولنصغ بعد هذا الى شاعرنا ، وقد وصف عرزاله هيكلا وروحا :

عرزالنا معلق   يموج فيه العبق
صنوبرات المنحنى   تضمه وتشفق
اغصانها ميادة   من فوقه تعتنق
مراوح من مخمل   تظله وتخفق !

ما احلى الاغصان مراوح من مخمل ، وما اجمل ظلها وخفقانها ... ويذهب الشاعر في الوصف فيرى العرزال جنة وعش يمامة !... ويا لنهم يلصق اللحظ باللحظ والاضلع بالاضلع والفم بالفم ، فلا بقية لرمق ...

امامنا زرق المسافات وافق مطلق ... الخ ... ولننتقل الى قصيدة « اصداء » وهي ذكريات عميقة لليال مزمنة :

وباعماق خيالي جنة   جمعت فيها النفوس المؤمنة

ومنها: انا من ريف على تلك الربع   اسبغ الله عليه فتنه
نثر الضوء على تربته   وبازهار الاماني زينه
انا من ارض رعاة جرحوا   سحبة الناي الحنون المحزنه
من جدود عصروا الكرم دما   سكرت منه الخوابي المدمنه
وعلى سمر الدوالي كتبوا   شرعة الحب وخطوا سننه !

وما اقرب هذا الشعر الصادق الى القلب وما اوقعه في النفس الحساسة التي تتذوق الجمال الطبيعي بكل مظاهره البدائية ، واناسه البدائيين ، فالشاعر لم يأخذه زهو الثراء ، ولا فخامة القصور ، ولا فخفخة الجاه وشموخ الحسب ، وجعجعة المدنية المادية المصطبغة بالف لون من الرياء ، وانما اخذه زهو الريف ، فاعتز بالضوء منثورا على تربته ، وبالرعاة يطلقون في جوه زفرات الناي الشجي .

ونلقى في « نداء الريف » حنينا رقيقا ينبعث من صدر الشاعر المغترب ، والحنين ذروة من ذرى الشعر المهجري ، يرسم لذكرياته ازهى الصور باجمل الالوان وارق الانغام ويصف الوهاد والرفاق والبيادر والنواعير ، والروابي ، والسواقي والاودية ، ثم يلح عليه الجوى ، ويعتلج الوجد في جوانحه ويصرخ :

كل شيء بريفنا   قد حوى بعض ذاتيه
كل شيء يعيش في   حلم من سنائيه

ولا غرابة بعد هذا ان ينادي ضيعته من وراء البحار بلهفة متلالئة بالامل فيقول :

ضيعتي ! هل اعود من غربة جد قاسيه

ويدوي بمسمعي   مائجا صوت راعيه !
وارى الافق حالما   والاماسي ساجيه
والكوانين والشتاء   وبيتا حوانيه
هل اراني بمركب   مقلة منه رانيه
عائدا نحو جنة   صفوها قد دعانيه

وبعد جولة بين تلال الضيعة والزيتون الحبيب والكروم واللوز يختم قصيدته الطريفة بهذين البيتين اللذين يعبران عن اعظم اماني المغترب ، وقد تحقق حلمه بالعودة :

عدت للريف يا فتى   ما سلا عنه ثانيه
فابعث الامس وابتدع   عيشة فيه هانيه !

فيا حب الارض كم توحي من بدائع ... وما اشد لصوق التراب الطيب بصدر الشاعر ، لقد تميز حنين فؤاد الخشن بطابع الجمال الريفي الذي قلما توغل في اعماقه الشعراء المهجريون ، وكانهم وقفوا في حنينهم على الشاطىء ، وقد عب بحر الحنين عبابه ، واشتد اصطخابه ، فكانت لهم الزفرات والآهات ، والوقوف على الجنبات ، اما اللآليء المتلالئات ، فما ركبوا لها لجج البحر ، ولا غاصوا لانتشالها من القعر ، ولا ترجموها بحروف من الجمر ..

حقا ان فؤاد الخشن شاعر الحياة اللبنانية ومفاتنها الطبيعية . وكان شعره غيث منهمر يسقي به تلك الارض الحبيبة التي قرأ على اديمها آيات من سفر غير مكتوب ، هو سفر الحياة والجمال والحرية ، فاذا هي هتاف الحب .

وهذا الحب الذي هو كنه الحياة وجوهرها ، هذا الحب الذي لا يفيض ويملأ القلب الا بعد تجارب عنيفة قاسية وانصهارات نفسية فيها شيء من الاعصار والبركان والزلزال ، والا بعد ولادات متعاقبة تطرح الزغل ، فيصفو القلب ويتالق ، هذا الحب المصفى ، هو الذي يدفع الشاعر بعد عودته من دار الاغتراب ، الى شعاب الريف وقد لبس للقاء شاعره ازهى الثياب ، واصطبغ بالف لون وخضاب .

ويتابع الشاعر فيتغنى بالجدول المخضر الضفاف ، وباشجار الصفصاف، وصحراء الشويفات المشهورة باشجار الزيتون ، ولا ينسى السفح وازهار التلال :

هل نسيت السفح يا قلبي وهل   غربت عنك ثريات الدوالي
وصبايانا الرشيقات الخطى   كيف يحملن الاغاني في السلال

وفي قوله ( يحملن الاغاني في السلال ) لفتة لماحة بارعة ، ذات معان رائعة .

ويختم الشاعر نشيد اللقاء بعين دامعة ، وسكينة قلب ماتعة ، ففي ذلك التراب القدسي سيلقى نعمة المثوى الواسعة :

ها هنا تغفو شويفاتي الحبيبه   بين زهر نشر الفجر طيوبه
وهنا يا قلب نغفو عندما   تنتهي دقاتك الثكلى الرتيبه
تحت زيتونة سفح هادىء   سوف تبكينا بدمعات خضيبه !

اني لا اعرف بين العرب والاجانب شاعرا احب الارض وهام بها واستوحاها ، كما احبها والتصق بها هذا الشاعر الملهم .

وعسير علينا ان ننقد الديوان قصيدة قصيدة . وان ندرس فرائده فريدة فريدة ، وان كان قد صادف هوى في النفس ، فجرعة من الخمر تنبئك عما في المنقود من سر وسحر ...

واذا كانت « غابة الزيتون » قد بلغت المستوى الارفع نظما وموضوعا فهناك قصيدتان هما ذروة هذا الديوان الطريف ، فالاولى «صوت الشجرة» وهي كما يقول الشاعر مستوحاة من الشعر البرازيلي ولكن شاعرنا قد تفنن في تلوين الصور واجاد ، وتوسع في المعاني والابعاد ...

اما الثانية فهي « سنديانة الخلوة » وربما كان موضوعها مبتكرا في الشعر العربي .

فرثاء الاحياء امر مألوف جدا ، اما الرثاء الذي لم يطرقه شاعر ولا خطر في فكر ، ولا وقع في خاطر ، فهو رثاء الشجرة ، وهذا الرثاء هو الذي انفرد به شاعرنا فؤاد الخشن ، فقد حز في قلبه ان يرى سنديانته القديمة – سنديانة الخلوة – مقطوعة لا اثر لغصن ولا لظل ولا لتغاريد بلابل وزقزقة عصافير كانت تعشعش فيها آمنة تسبح الله . فحزنت نفسه وتصاعدت زفراته وغمره الاسى ، واستعبر وراح يرسل تنهداته اناشيد ندب شجي حنون :

قطعت وكنت قباب     ينام عليها الضباب
قطعت وكنت اخضرارا وظلا
وكنت على التل احلى جناح     وازهى وشاح

اراني اسهبت واطنبت وعذري وقد امتد بي النفس ان « غابة الزيتون » جديرة كل الجدارة بالدراسة والنقد وقد قصر النقاد في جلاء محاسنها ومراميها فما وفوها حقها ، وعذري اننا نلقى في غابة الزيتون روح لبنان النقية المتألقة .

وعذري ان فؤاد الخشن شاعر مهجري متسع الافاق ، وانني من اسرة زيتون ، وان بيني وبين الزيتون وشائج قربى عاطفية ، ان لم تكن ايجابية معنوية ، فهي على الاقل اسمية ...

حمص     نظير زيتون

•

## مآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي

**كتاب ضخم في نحو من ١٥٠٠ صفحة بثلاثة مجلدات من القطع الواسع – تحقيق عبد الستار فراج – ونشرته في مجموعة التراث العربي وزارة الانباء والارشاد في حكومة الكويت**

ان حركة الانبعاث الفكري في التراث العربي وثبة رافقت النهضة العربية الحديثة ، وما اجد فيما خلفته الامم من منتوج عقلها ، ومنسوج شعورها، تراثا مكتوبا كالذي خطته اقلام العرب ، في مطاوي التاريخ ، وعلى ترادف العصور القديمة ، قبل ان يمنح الانسانية مخترع الطباعة الراحة من نسخ المخطوطات .

فعلى يقظة مجدنا العربي الحديث ، نشأت في الديار العربية في الشام ومصر والعراق ولبنان وفي الكويت والمغرب هبة في نشر الكتب التي سلخ اوائلنا اعمارهم في كتابة صفحاتها بالحبر ، وتزويق صدورها وخواتيمها بالزعفران ، حتى اخرجوها في طباعة حديثة نقية اغنت المكتبة العربية في الخافقين وهم فيما صنعوا حتى الآن لم يطبعوا مخطوطات العرب الا القدر اليسير .

من هذه الآثار الباقيات كتاب ضخم جاء في ثلاثة مجلدات هو كتاب « مآثر الانافة في معالم الخلافة » الذي الفه في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي احد افذاذ الادب والفكر احمد ابن عبد الله القلقشندي صاحب معلمة ( صبح الاعشى ) . وقد نهض بتحقيقه من مخطوطته في الفرائد احد وعاة العلم وسدنة الادب هو الاستاذ عبد الستار فراج المحرر الادبي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتكليف من حكومة الكويت التي نشرت هذا الكتاب بهمة وزارة الانباء والارشاد فيها. وهذا الكتاب هو الثالث عشر من سلسلة التراث العربي ، الذي حملت عباءه الجسيم بهمة حميدة ورأي رشيد ، وقد قدم له العارف بالمخطوطات وخبيرها الاديب الدكتور صلاح الدين المنجد .

تلك توطئة بين يدي الكتاب ، اشبهت فيها من يعرف بتحفة سنية ، ليس يستغني ، وهو يعرض فحواها ، عن كلمة يقولها في وصفها ، والتشويق اليها .

يستفتح مؤلف الكتاب القلقشندي كتابه بخطبة على طريقة مؤلفي عصره بالحمد لله والثناء على الخليفة وقد كانت في عصر المؤلف سجية السجع مسيطرة على الاقلام ، حتى في تاليف كتب التاريخ والتراجم ، فجرى في مقدمة مسجوعة على تلك الطريقة التي كانت دأب اهل عصره لكنه سكب عليها اللفظ المختار والمعنى الدقيق ، وان عصرنا وان خلص من هذه التكاليف فان في عودة الدارسين الى النظر فيها اطلاعا على المآثر القديمة في الفكر والادب والفن . وهذا الكتاب وان ظن بانه اثر تاريخي، فاني لا اراه اثرا متفردا بموضوع التاريخ، وانما هو ادب وسيرة واخبار ونوادر ، ولعلي أعده من الكتب العلمية ذوات التخطيط ، على مصطلح الكلام في عصرنا لهذا اللفظ الذي اخذت به الدول العربية اليوم .

فكتاب مآثر الانافة تخطيط – كما اراه – للخلافة يومذاك في تنظمتها وادارتها وما كان يكتب في دواوين انشائها من الكتب والصكوك والتوجيهات والعهود للعمال والنظار ، وفي خلال ذلك يورد المؤلف اخبارا غرائب ونوادر جميلة مبهجة وسيرا وتراجم فيمزج التاريخ بالادب ، والفن الانشائي في التعبير باصول الادارة ، وتخطيط الدولة .

والغريب المحبب فيما رأيته في هذا الكتاب ان مؤلفه على قدمه يناصي في طريقته في التاليف طرائق علماء الجامعات ومؤلفي دراساتها المنهجية، فالقلقشندي في كل جزء كبير من كتابه هذا يصنع مقدمة ، ثم فصولا ويفرع على ذلك بالبحث والخبر ، فاذا تكلم على الخليفة عرف بنسبه واصالته وبثقافته ومنزلته ، ثم ذكر الحوادث والماجريات في عهده ، وولايات الامصار التي كانت لديه او حدثت عنده ، والاثر في مجمل تاليفه ، انه الم بتاريخ الامة الاسلامية والعرب الامة شافية ، فبدأ باول الخلفاء وهو ابو بكر الصديق مسلسلا الكلام على الخلفاء الامويين فالعباسيين فالاندلسيين . وقد قصر المجلدة الثانية منه بكلامه على خلفاء بني العباس ، والثالثة في المكاتبات وما كان يسمى حسب طريقته في الاداء بالمذاهب والاساليب فيما يكتب للملوك ، ومن هم دون الملوك .

وقد نظرت في تلك المذاهب والاساليب فالفيتها جارية على السجع لكنها محكمة الاصول . حتى اذا انتهت مهمة القلقشندي فيما جرى في بهذا الكتاب ، في فكره وفنه ، برز المحقق ضاحيا فابدى جهوده بما صنعه هو بعد ان حقق النص الاصلي ، وعني بنصوصه ، ثم جاء بالفهارس التي هي من ترتيبه وجمعه ، ولا يعرف مجهودها المضني الا من صنع مثلها ، فكان الاستاذ عبد الستار فراج يردف كل جزء من هذه الاجزاء الثلاثة بمجموعة من الفهارس والثبوت ، في الموضوعات وفي الآيات والاحاديث النبوية التي وردت اثناء الكتاب ، ثم بفهرس لقوافي الشعر وآخر للكتب التي ذكرها المؤلف وناهيك بفهرس الاعلام والاماكن ، وقد اضاف على هذه الفهارس واحدا لم يصنع على غراره من قبله ، وهو فهرس «الطرائف والنوادر والايام والوقائع » . وقد ظهرت هذه الاسفار الثلاثة النفيسة في عامنا هذا الالف والتسعمئة والاربعة والستين ، وكل مجلدة في نحو من خمسمئة صفحة من القطع الوسيع .

وحين انتهيت من النظر في هذا الاثر العريق الذي احتوى الادب ، وامسك بالتاريخ وجدت جمال اللقاء بينه وبين ما تصنعه جمهوريتنا العربية السورية في نشر التراث العربي والاسلامي في المجمع العلمي

العربي بدمشق وفي وزارة الثقافة والارشاد القومي .

وفي زحام عصرنا الحديث الذي يؤثر كل طريف ، ويمضي خلف كل جديد ، ينبغي ان نعلم علم اليقين ، بان تراثنا القديم الذي ما زال رهن المخطوطات موزعا في اقطار الارض والذي لم يستطع العرب حتى الآن الا على نشر جزء يسير منه يدعو الامة العربية ان لا تنساه في مكامنه باقبية دور الكتب الغربية والشرقية حيث ملت اجفانه من الرقود ، وان فيه لارواحا تطالب اصواتها من كل مكان ان تخرج من سجونها لتكون كتبا منشرة حديثة .

ومما يحمد للجيل الصاعد في ديار العروبة والاسلام ، ترحيبه بهذه الحركة الانبعاثية لنشر التراث القديم ، فليس يعرف قدر هذه الاسفار سوى اهل الفضل والعارفين بمجد امتنا ومحتدها ، وان امتنا العربية التي تفاخر في ماضيها بالفكر والفن تستطيع ان تعتز بحاضرها وان تعد لمستقبلها كل مجد وطيد وسؤدد دائم .

**دمشق** **زكي المحاسني**

•

## الانسان العربي قديمه وجديده

**تاليف الدكتور جورج حنا ـ ١٥٢ صفحة ـ مطابع دار العلم للملايين بيروت**

ان العالم اليوم يعاني حيرة في الفكر ، واختلافا في الرأي ، واضطرابا في النظم ، ويعاني قلقا في الحياة ، وان النظم التي يكتب لها العيش هي النظم التي تلبي حاجة طبيعية في حياة المجتمع ، وحاجة شعورية في ضمائر الناس ، وهذه هي الحقيقة الواقعة التي سجلت عبر التاريخ، والدكتور جورج حنا في كتابه ( الانسان العربي قديمه وجديده ) سبر غور الانسان العربي وتنبأ له بمستقبل افضل فتكلم في الفصل الرابع من كتابه هذا عن الشخصية العربية في العصر الذهبي فقال في صحيفة (٤٨) عن الدعوة الاسلامية « كانت تلاقي نجاحا كبيرا في صفوف الشعب ... في حين كان الزعماء الكبار يقاومونهابضراوة ويعملون كل شيء للقضاء عليها » ، ثم تكلم عن العوامل التي ادت الى انتصار محمد (صلى) في اكبر ثورة عربية ... وفي مدة لا تتجاوز العشرين سنة ؟ فيقول : « مما لا شك فيه . ان ايمانه الصادق برسالته كان العامل الاول ... غير ان الايمان وحده ما كان ليؤتي الانتصار بهذا الوقت القصير لو لم يكن محمد يتجلى بصفات ... لا اميز ولا انبل : بساطة في العيش .. اخلاق سامية مفروزة في صميم فطرته .. احترام العمل ايا كان العمل .. احترام الانسان ايا كان الانسان .. الدفاع في سبيل الحق الى ما لا يحده حد .. عبقرية فطرية في معالجة الامور مهما كانت شائكة .. قلب مفعم بالحب لهذا الكائن الذي اسمه الانسان .. ارادة حديدية في السعي ليخلص الشعب من الحالة التي كان فيها . »

وارى ان الانسان العربي لا بد له الاكبار من شان الدين وانه يجب ان يكون سنده في الحياة وذلك انه مهما يكن مركزنا الاجتماعي وضيعا فان الدين يرفعنا ويكسبنا الكرامة البشرية التي نحتاج اليها كلما ارهقتنا الحوادث والتجارب كما يقول الاستاذ سلامه موسى .

والاستاذ جورج حنا ينحى باللائمة على الشعوب العربية لتخلفها علميا ويقول في صحيفة ( ٩١ ) « وان العالم العربي في جوعه العلمي يحتاج الى الخبز اكثر مما يحتاج الى الفواكه والحلوى » . وفي فصل « الشخصية العربية في عصر العرب الذهبي » يقول المؤلف : « ان الحقيقة التاريخية بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر هي بحق عصر العرب الذهبي . ففي هذه الحقبة كان العرب حاملي مشعل الثقافة الوحيدين بينما كانت اوروبا تغط في ديجور الجهل ، وهذا القول يذكرني بقول الاستاذ الكبير الزيات « ... وبينما كان الشرق من ادناه الى اقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من اضواء المدنية والعلم ، كان الغرب من بحره الى محيطه يعمه في غياهب الجهل الكثيف ، والبربرية الجموح ، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمه حصون الامراء المتوحشين من بعض الكتب وما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشور العلم وانقضى القرن التاسع والقرن العاشر للميلاد واولئك الامراءفي قصورهم يتبجحون بالامية ويرتعون في الدماء ، وهؤلاء الرهبان في ديورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب القديمة لينسخوا على صفحاتها المحوة كتب الدين ، حتى ازال الله الغشاوة عن بعض العيون ، فرأوا من وراء هذا الظلام الداجي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق فلما تبينوا ان البقعة هي جزء من اسبانيا ، وان النور قبس من نور بغداد استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الانساني ، فطلبوا العلم فلم يجدوه الا عند العرب » .

يقول المؤلف في صحيفة ( ٥٦ ) « ان الغزالي كان اكبر فقهاء الاسلام كان فقيها ولكنه لم يكن فيلسوفا ، ويقول في صفحة ( ٥٩ ) « ان الغزالي هو من انزل الفلسفة العقلية العربية من هذا المقام » .

ونحن نترك الرد على قول المؤلف للغزالي نفسه حيث يقول ( ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الان . ومذ اناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق ، واخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة واتهجم على كل مشكلة ، واقتحم كل ورطة وانفحص عقيدة كل فرقة واستكشف اسرار مذهب كل طائفة لاميز بين محق ومبطل ومتمن ومبتدع. لا اغادر باطنيا ولا ظاهريا الا واريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا واحرص على العثور على سر صفوته الخ ... )

وهذا يدل دلالة واضحة لا غموض فيها ولا ابهام ان الغزالي يعتبر من الائمة المجتهدين ومن احرار الفكر في زمن قل ان نجد فيه من يجار بآرائه التي تخالف آراء معاصريه الذين نسج الجمود على عقولهم غشاوة فهم لا يبصرون .

ويعزو المؤلف سبب تاخر الانسان العربي الى تغلب الشعور الفردي على الشعور الجماعي الذي يقعده عن العمل من اجل الجماعة التي هو جزء منها ... وبالتالي يحول دون تقدم الجماعة التي يتوقف تقدمه على تقدمها .

وفي صحيفة ( ١١٢ ) يشيد المؤلف بثورة يوليو ١٩٥٢ التي انطلقت من ارض الكنانة ويقول: «ومن هناك انتشرت الافكار العربية الاخرى» ، ويعتبر المؤلف الرئيس جمال عبد الناصر من طراز العربي الجديد فيقول: « والواقع المعروف ايضا .. ان اليد المحركة لهذه الانطلاقة ... صاحبها من طراز الانسان العربي الجديد » .

وفي ختام كتابه هذا يشيد المؤلف بمؤتمر القمة للملوك ورؤساء الدول العربية ويقول انها ظاهرة مشجعة ومدعاة تفاؤل . وفي نهاية هذا الكتاب القيم يقول : « اننا بانتظار الايام المقبلة قريبا لاصدار الحكم النهائي على الانسان العربي الحاكم . والحكم سيكون عسيرا وبقاية القسوة من قاض لا يساير ولا يرحم .. اسمه« الانسان العربي الجديد».

**بغداد** **عبد الخالق عبد الرحمن**

•

## آلام

مجموعة شعرية ـ لنديم محمد ـ صفحة ؟ ـ مطبعة (؟)

نصيب « اللوحة » في الشعر العربي من الدراسات الادبية قليل لا يكاد يذكر ، ربما لغلبة الجانب التاريخي الذي يرصد الظاهرة الادبية ويتتبعها عبر العصور المتعاقبة مؤكدا على ما اصابته من تلون وتغير خارجيين في الغالب ، دون الالتفات الى اسرار جمالها وتحليل عناصرها

وصلتها بالشاعر ، وربما لان شان « اللوحة » في شعرنا القديم لم يكن شأن البيت المفرد والحكمة السائرة والمعنى البارع كثرة وذيوعا .

وايا كان السبب ، فقد عرف الشعر العربي القديم لوحات عند هذا الشاعر او ذاك ، وهي وان تكن قليلة متناثرة ، فقد توفرت لمعظمها اسباب الابداع والفن . وربما كان « ذو الرمة » الشاعر البدوي القديم ، افضل من برع في رسم اللوحات الصحراوية الجياد يبثها احاسيسه ويحملها مشاعره ، وهو ( في هذا الجانب فريد في الشعر العربي القديم ، فهو يصفها لا وصف الشاعر الذي يشاهدها ويعجب بها ، ولكن وصف الشاعر الذي يندمج فيها ويفنى ... يصفها من الداخل ، داخل نفسه وروحه اذ كان شديد الحس بها ، بل قل شديد العشق لها وقد تحول يصنع لوحات يسجل فيها مشاهدها ويرسم مناظرها بجميع تفاصيلها ) كما يقول الدكتور شوقي ضيف .

فاذا انتقلنا الى العصر الحديث طالعتنا لوحات فنية بارعة عند شوقي وابي شبكة وفوزي المعلوف وناجي وعلي محمود طه وابي ريشة والاخطل الصغير وسواهم . ولم يعد الشاعر يقنع بالبيت دون القصيدة ، ولا باللمحة الدالة دون الصورة الكلية ، ايمانا منه بضرورة توفر الوحدة العضوية ، واعمال الفكر والخيال في تمثل التجربة وخلقها على سبيل التصوير الدقيق المنظم لا على سبيل تكرار المعاني والخواطر المتناثرة التي تلخص التجربة ولا تصورها . وقد بلغت محاولات الجيل الماضي في رسم « اللوحة الشعرية » مداها دقة وشمولا على ايدي كبار الشعراء المعاصرين الذين تخلوا عن اسلوب المعاني وآثروا اسلوب التصويرباللوحة التي تنتظم القصيدة كلها . ولقد استطاع نديم محمد ، من بين الشعراء المعاصرين ، ان ينفذ في « آلام » ديوانه الاول ، الى لوحات عامرة تنبض بالحياة وتفيض بالشعور رسمتها ريشة فنان ماهر وهب القدرة على تمثل الموقف وحشد جزئياته وتوزيعها في اماكنها المحددة من اللوحة ، فاذا هي صورة كبيرة ملونة تجذبك منها براعة الشاعر في خلقها على نحو منظم لا نبو فيه ولا حشو . ولقد يمكن ان يقال انه في بعض قصائده ما زال مرتبطا بالقديم ، او قل انه يكرر صورا غلب عليها التقليد ، وافقدها التكرار بعض جمالها في مثل قوله :

انت في الشرق حين انظر والغرب وفي الماء والثرى والسماء

انت في خطرة النسيم على الروض وفي العطر والندى والضياء

انت في كل ما احس وما الكون بعيني لولاك غير فناء

الندامى والخمر والحب والناي وما شئت من سنى ورواء

فاللوحة قديمة لا يلفتك فيها جديد طريف ، ولا يشفع لها ان الشاعر تصورها ، فتراءى له خيال الحبيبة في مظاهر الطبيعة المتباينة ، ذلك ان عيب هذا اللون من اللوحات الشعرية انه رجراج الحدود لا يمسك به عن الامتداد والتسيب اطار محدد يضغط اللوحة في بؤرة معينة ويهيء لها حيزا خاصا يحول دون ان يستسلم الشاعر لتكديس جزئيات تصويرية يمكن ان تمتد الى ما لا نهاية وعلى غير ما نظام ، كما كان الامر في الاغلب الاعم من شعر الشابي .

على ان هذه اللوحة التي تكاد تكون الوحيدة في هذا النزوع لا تمنع من ان تكون هناك لوحات جياد ، في رسمها جهد ، وفي تخطيطها فن واتقان :

حلم نائب اضاءت عليه الكوخ في يوم هداة وحرور

حلم العيش مفردا في اعالي الريف الا من قصبة وسمير

يملأ الفجر عب عيني فما تفسل الا في دفقة من نور

وأنقي في شرقة الصبح اصداء فؤادي بنغمة العصفور

واكش الندى المعابث في العشب لاحمي منه ابتلال الحصير

وابت الاشواك منها بسكيني وارمي بالشوك من فوق سور

وازيح القشور ابعد عن الظهر مني ثقالة الزنبور

واسوي من تحت ظهري وارتد الى الخلف باتكاء قرير

فتدف الاوراق من فوق رأسي وتنث الزهور حلو العبير

وقبيل النحل المدندن حولي متعة السمع والحجى والشعور

وفراش سرب الى جنب سرب لائب في رواحه والبكور

وقريب مني خراف على التل صغار بيض كدر نثير

وغدير غاف على قدم السفح الى الآن بانتظار الهجير

بيدي الناي او بها محصد السنبل او سلة لجمع الزهور

ومعي في الفياض اعواد دبق وفخاخ شتى لصيد الطيور

وورائي كلب امين على شخصي من الغدر في ضلال المسير

وحمار في العود يحمل ما ثمرت من حاجة وصيد كثير

واراني مع الاصيل على مفرق درب ومشرف من صخور

والى جانبي مرف دجاجات قريب منه مناط قفير

والعصافير لها مغرب النور لتشدو له بلحن أخير

هو الريف ببساطته وسحره وصفائه مجسما في صور تتصل وتتلاحق عبر موسيقى ( الخفيف ) الهادئة ، حتى اذا انتهت شعرت انك ازاء لوحة متكاملة استقصت فيها ريشة الشاعر دقائق الصور وسجلت جزئياتها ، لا يعوقها وقوف عند صورة دون اخرى او اهتمام بجانب دون سواه . وبالرغم من ان اللوحة واسعة تشغل حيزا مكانيا يكاد يضم كل مظاهر الطبيعة في الريف ، لم يتول الشاعر البهر ولم يقهر ابداعه الفني عن التجويد في كافة جزئياتها ، ذلك لان استمرار الدفق العاطفي القوي كان كفيلا بالحؤول دون مثل هذا القصور ، وكان كفيلا بأن يصل الفجر الذي يملأ عب عيني الشاعر ، والذي بدأت به اللوحة ، بمغرب النور الذي تشدو له العصافير بلحن اخير عبر العديد من الصور الجزئية البارعة . ولنلاحظ كيف بدأت اللوحة بهذا التمهيد الذي يوحي بموقف الشاعر منها وصلتها به :

حلم نائم اضاءت عليه الكوخ في يوم هداة وحرور

فاللوحة اذن حلم ... حلم زاه يشيع فيه جو من الرضى والهدوء هما دون شك انعكاس لاحساس الشاعر وفيض من شعوره في طور من اطوار نفسه ، فلم تعد اللوحة عنده مجرد صور جامدة ، انما هي لحظات من التوق الى الطمانينة ، والهرب من الالام تطل وراء جزئيات الصور وجوها الساحر .

نجد مصداق هذ القول في لوحة اخرى يفيق فيها الشاعر من حلمه العذب على وجه الواقع الذي هرب من شقائه ، فاذا بالسواقي تضج بالتماسيح ، والفراشات تكنس العبق الميت ، واذا بظلال الموت والصمت الموحش تنعكس على كل ما تقع عليه عينه :

والسواقي ملقى العصافير ضجت بالتماسيح حولها والبزاة

وذيول الصفصاف لا تملأ العين حياء كفابر الامسيات

والندامى لا ينثرون على السمار كالامس طيبات النكات

ولمحت الغدير اغبر كالعتمة يبكي غوارب النفحات

لا ورودي الابكار تطفىء فيه الحر عذرية الصبى طاهرات

حرستها الظلال فانجردت عريا وفرت ظلالها طائرات

والفراشات تكنس العبق الميت عليها خواشعا ذاهلات

وعيون البراعم الحور تنكب على ارجل السنى مائتات

ورفات لزهرة فوق غصن ورفات من تحتها لنبات

ويثور الشاعر على هذا الواقع المفجع ، ويتمرد ... ولكنه سرعان ما يستسلم للحزن الطاغي فيرسم لوحة ثالثة يغلب عليها اللون الاسود :

وتثاءبت عادة الصحو في الريف شمالي مأخوذة بيميني

فاذا الشمس غربت واذا الاغصان قفر من ساجعات الغصون

فمسحت الغبار عني وطوحت لقلب الوادي بصخر سمين

وتسمعت حالما لاشتداد الصخر في السفح وانفجار الرنين

وتسكعت في طريقي وللراعي ورائي تعجب من جنوني

نام ريفي الا نعيب على الوادي وناي كوخ حزين

آه ما للدموع تنبع في صدري وتجري الى قرار مكين

ويضيق الشاعر باحزانه ، فيهرب الى كاس سلوة « لا تنزل الاحزان ساحتها » يغرق فيها آلامه ويجلوها عروسا في هالة من العطور والاضواء والدفء عبر لوحة لعلها افضل ما رسم في شعر الخمرة العربي :

من رآها تدور في الكاس كالبؤبؤ في مقلة الجريح الصادي
من رآها تنهد من شفة الدن رأى السيل طاغيا في الوادي
سهلة صعبة كزوبعة العطر جموح كثورة الانشاد
يسكر الحس ذوقها بخشوع الاثم فيها وعفة الاحقاد
تشرب العين قبلها عبق السكر فيمشي الخمار في الآماد
كأسها في الدجى قصاصة نور افلتت من مشارف الابعاد
من رآها تساقط للسمع حديث الآباء والاجداد
فمها دافىء وفي املي برد عساها تعين في اسعادي
حبة حول حبة كنسيق اللحن ساج راضي المهزة هاد

هي خمرة الخيام ، او ابي نواس ، ولكن شاعرنا يجلو لها صورةجديدة تعانق فيها ضربة الريشة هجسة النفس ، فللعطر زوبعة جموح ، والحبة حول الحبة لحن نسيق ساج . ويطيب للشاعر ان يتغزل بها ويجلو محاسنها كأنها الحياة التي ينشد ، أو قل كأنها الحبيبة التي يحاول نسيانها ، فاذا به يبثها الشوق والحب ـ على غير وعي منه ـ خلال هذه اللوحة التي تطفح فيها لهفة الشاعر الى فم دافىء يعين في اسعاده ، وحياة كلحن راضي المهزة هاد .. فوصفه للخمرة يتعدىالوصف البصري الحسي الى نغم عاطفي فيه الكثير من النبض الوجداني والتوق الى الخلاص .

والشاعر في كافة قصائده حريص على ان يمهد للوحة بجو نفسي وخلقية مكانية تحول دون طغيان الغنائية على الابيات وتحفظ لها قدرا من الموضوعية .. فاذا شاء ان يرسم لوحة للشاعر في غربته وعذابه بدأها قائلا :

أخذتني عيني فأبصرت اطلالا واسمعت بينها كالغناء
فتلفتت في الطبيعة القاه غريبا مزملا .. برداء

فخلفية اللوحة « اطلال » ، والذي سمعه الشاعر لم يكن غناء ، وانما كان « كالغناء » حرصا منه على ان يوحي بجو القصيدة ايحاء استدراجيا فلا يسمي الاشياء باسمائها قصد ان تتكشف تلقائيا من خلال جو اللوحة .

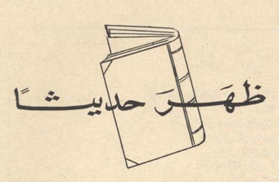
وفي قصيدة اخرى يرسم الشاعر لوحة رائعة للعرس في الريف ، لعل اهم ما يميزها هو « الخصوصية » في التصوير ، شأن كل عمل فني ناجح، فلا تكاد ترى فيها تكرارا لصور سابقة ، او محاكاة لجو قصيدة معينة ، وانما يجذبك منها هذا الانطلاق من جزئيات التقاليد الريفية في الزواج، انطلاقا مميزا فيه من الروح والصور الشعبية ما يضفي عليها طابعا خاصا ، فهناك الخيل المجلوة ، والمزامير ، ومطرد الفتيان ، والحواة .. والصبية النثر الطفر :

وحكى الريف عن مزامير في الحي وخيل مجلوة بالشفوف
وحكى عن جمال مطرد الفتيان من فوق خيلهم بالسيوف
واغان شذى القلوب هوام وصبايا نواقر بالدفوف
وزغاريد او صدى خصب اللؤلؤ تنهر في زجاج شفيف
وحواة فوضى على الساح من عبل قوي ومن هزيل ضعيف
وبنات وصبية نثر طفر وراء الكوى وتحت الرفوف
وفلول على المياه ورود ونزول على رحاب المضيف
وحديث هنا بريء طهور ودعاب هناك عف شريف
عرس ام جنازة الحب شيعت بقلب باك ودمع انوف

وهكذا ، تتنقل ريشة « شاعر الآلام والعنفوان » تفجر طاقات الرهافة والخلق ، وتخطط اللوحة اثر اللوحة وتلونها وتظللها وتسكب نفس الشاعر على الطبيعة مبدعة لوحات فنية رائعة لا ينال من جمالها انها تنتسب الى مدرسة ادبية تخطاها الشعر العربي منذ زمن غير قريب .

بغداد

عبد الجبار عباس




- في الثقافة والادب ـ تاليف عبد الكريم غلاب ـ تقديم محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية ـ ١٨٢ صفحة ـ مطبعة الاطلس بالدار البيضاء .
- زائرة نصف الليل ـ قصة ـ تاليف عبد الكريم فرحان ـ ٢٦٤ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة).
- السندباد ـ من قصص الف ليلة وليلة ـ قدري قلعجي ـ ٢٠٠ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ومكتبة النهضة ببغداد ـ مطابع دار الغد ( ؟ )
- متى ينتهي الليل ـ مجموعة قصص ـ تاليف محمود سيف الدين الايراني ـ ١٦٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطابع دار الغد ( ؟ )
- مي اديبة الشرق والعروبة ـ تاليف محمد عبد الغني حسن ـ ٣٢٨ صفحة ـ منشورات عالم الكتب بالقاهرة ـ دار الثقافة العربية للطباعة(؟)
- حب بلا لقاء ـ مجموعة قصص ـ تاليف عبد العزيز محمد عريقات ـ تقديم قدري قلعجي ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطابع دار الغد (؟)
- آفاق الفن ـ تاليف الكسندر اليوت ـ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ـ ٢٥٦ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ ( لم يذكر اسم المطبعة ) .
- ممارسة الثقب وتشغيل السطوح ـ تاليف فريد ه. كولفن وفرانك ا. ستانلي ـ ترجمة الدكتور صلاح الدين محمد المهدي ـ مراجعة الدكتور كامل اسكندر ـ تقديم الدكتور محمد محمد حسان ـ مصمم الغلاف السيد محمود اسماعيل ـ ٨٦٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ مطبعة مصر (؟)
- فكرة المسرح ـ تاليف فرنسيس فرجسون ـ ترجمة وتعليق جلال العشري ـ مراجعة وتصدير درينة خشبة ـ مصمم الغلاف طلعت المصري ـ ٣٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار النهضة العربية ( ؟ ) ـ المطبعة العالمية بالقاهرة .
- حصاد الفكر ـ تحرير روبرت كازنس ـ ترجمة الدكاترة محمد علي العريان ، محمد جمال الدين الفندي ، منيرة حلمي ، ورجائي نجيب مقار ـ مراجعة وتقديم الدكتور زكي نجيب محمود ـ مصمم الغلاف احمد محمد منيب ـ ٣٠٠ صفحة ـ منشورات مركز كتب الشرق الاوسط بالقاهرة ـ ( لم يذكر اسم المطبعة ) .
- النشاط المدرسي في المرحلة الثانوية ـ تاليف ادجار جونستن ورولاند فاونس ـ ترجمة وتقديم الدكتور محمد علي العريان ـ مراجعة محمد السيد روحه ـ مصمم الغلاف حنا صبري بطرس ـ ٤٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار القلم بالقاهرة ـ مطابع دار القلم بالقاهرة .
- كيف تبني حياتك الزوجية ـ تاليف افاين مليس دوفال ـ ترجمة الدكتور عثمان لبيب فراج ـ تقديم محمد كامل النحاس ـ ٧٢ صفحة ـ حجم صغير ـ منشورات مؤسسة الخانجي بالقاهرة ـ مطبعة الاستقلال(؟)